الفصل الثالث

الرسول فى المدينة

● إيذاء اليهود له :

هذا ما كان من أهل مكة مع رسول الله ﷺ ، وما لاقاه المسلمون - وكانوا قلة مستضعفة - على أيدى المشركين من أذى فى ذلك المجتمع الوثنى المظلم .. حتى أنجى الله رسوله ﷺ من ظلمهم وبغيهم ، وأنجى معه المسلمين بالهجرة من دار الكفر إلى دار العزة والإسلام .

أما فى مجتمع المدينة - حيث هاجر رسول الله ﷺ - وكثرت أعداد المسلمين وقويت شوكتهم .. فقد كان الأذى يقع على رسول الله ﷺ ، وعلى المسلمين ، من اليهود والمنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أُبَىّ بن سلول ، فقد ناصبوا المسلمين العداء ، وصبوا عليهم كيدهم ومكرهم ، بغياً من عند أنفسهم وحسداً ..

يقول ابن هشام : « ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة ، بغياً وحسداً وضغناً ، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ، ممن كان عسى على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم فى الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام ، واتخذوه جُنّة من القتل ونافقوا فى السر ، وكان هواهم مع يهود ، لتكذيبهم النبى ﷺ ، وجحودهم الإسلام .

وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه ، ويأتونه باللبس ، ليلبسوا الحق بالباطل .. فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه ، إلا قليلاً من المسائل فى الحلال والحرام ، كان المسلمون يسألون عنها » [1] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٣٢٦/١

● وكان ممن تعوذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار اليهود زيد بن اللصيت - وهو من بنى قينقاع ، وهو الذى قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته !

فقال رسول الله ﷺ وجاء الخبر بما قال عدو الله فى رحله ، ودلّ الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ على ناقته : « إن قائلاً قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ، وإنى والله ما أعلم إلا ما علّمنى الله ، وقد دلّنى الله عليها ، فهى من هذا الشِعب ، قد حبستها شجرة بزمامها » .

فذهب رجال من المسلمين ، فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ ، وكما وصف .

*

● ومن اليهود الذين ناصبوا الرسول ﷺ العداء : حيى بن أخطب وأخواه ، وسلام بن مشكم ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وعبد الله بن صوريا ، ومخيريق ، وسويد بن الحارث ، ورفاعة بن قيس ، وفنحاص ، وشاس ابن عدى ، وعدى بن زيد ، وكعب بن راشد ، ورافع بن أبى رافع ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وكعب بن أسد ، ولبيد بن الأعصم ، وكنانة بن صوريا ، وقردم ابن عمرو ، وسلسلة بن برهام ، وغيرهم من أحبار اليهود ، أهل الشرور والعداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه ، وأصحاب المسألة ، والنَصَب لأمر الإسلام الشرور ليطفؤه ، إلا ما كان من عبد الله بن سلام ومخيريق اللذين أسلما .

وكان من حديث مخيريق - وكان حَبْراً عالماً - وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته ، وما يجده من علمه ، وغلب عليه إلف دينه ، فلم يزل على ذلك ، حتى إذا كان يوم أُحد - وكان يوم سبت - قال : يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم .

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد ، وعهد إلى مَن ورائه من قومه : إن قتلتُ فى هذا اليوم فأموالى لمحمد (ﷺ) يصنع فيها ما أراه الله .

فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتل ، فكان رسول الله ﷺ يقول : « مخيريق خير يهود » . وقبض رسول الله ﷺ أمواله ، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها .

وأنزل الله تعالى فى شأن اليهود والمنافقين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (١) : أى بما أنزل إليك ، وإن قالوا إنّا قد آمنا بما جاءنا قبلك ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ : أى أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك ، وجحدوا ما أُخذ عليهم من الميثاق لك ، فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم ، مما جاءهم به غيرك ، فكيف يستمعون منك إنذاراً أو تحذيراً ، وقد كفروا بما عندهم من علمك ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ : أى عن الهدى أن يصيبوه أبداً ، يعنى بما كذّبوك به من الحق الذى جاءك من ربك حتى يؤمنوا به ، وإن آمنوا بكل ما كان قبلك ، ﴿ وَلَهُمْ ﴾ بما هم عليه من خلافك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فهذا فى الأحبار من يهود ، فيما كذّبوا به من الحق بعد معرفته .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ : يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ، ومن كان على أمرهم ، ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ : أى شك ، ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ : أى شكاً ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ : أى إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل

---

(١) الآية السادسة من سورة البقرة .

الكتاب ، يقول الله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَواْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ - وهم علماء اليهود الفاسدين ، اللين يأمرونهم بالتكذيب بالحق ، وخلاف ما جاء به الرسول ﴿ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ : أى إنّا على مثل ما أنتم عليه ، ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ : أى إنما نستهزئ بالقوم ونلعب بهم . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ : أى يحارون ، ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلالَةَ بِالْهُدَىَ ﴾ : أى الكفر بالإيمان ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ .

ثم ضرب الله تعالى لهم مثلاً فقال : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴾ : أى لا يبصرون الحق ويقولون به حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر أطفأه بكفرهم به ونفاقهم فيه ، فتركهم الله فى ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدىً ، ولا يستقيمون على حق ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ : أى لا يرجعون إلى الهدى ، صمّ بكمٌ عُمْى عن الخير ، لا يرجعون إلى خير ، ولا يصيبون نجاة ما كانوا على ما هم عليه ، ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ [1] مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ : أى هم من ظلمة ما هم عليه من الكفر والحذر من القتل ، من الذى هم عليه من الخلاف والتخوف لكم ، على مثل ما وصف ، من الذى هو فى ظلمة الصيِّب ، يجعل أصابعه فى أذنيه من الصواعق حذر الموت . يقول : والله منزل ذلك بهم من النقمة ، أى هو محيط بالكافرين . ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ

---

(١) الصيب : المطر ، والجمع : صيائب .

يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ : أى لشدة ضوء الحق ، ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ : أى يعرفون الحق ويتكلمون به ، فهم من قولهم به على استقامة ، فإذا ارتكسوا منه فى الكفر قاموا متحيرين . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ : أى لما تركوا من الحق بعد معرفته ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ - للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين - أى : وحدوا ربكم ﴿ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ ، فَلا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه . ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ : أى فى شك مما جاءكم به ، ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ : أى مَن استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه ، ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ فقد تبين لكم الحق ، ﴿ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) : أى لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر .

ثم رغَّبهم وحذَّرهم نقض الميثاق الذى أخذ عليهم لنبيه ﷺ إذا جاءهم ، وذكر لهم بدء خلقهم حين خلقهم ، وشأن أبيهم آدم عليه السلام وأمره ، وكيف صنع به حين خالف عن طاعته . ثم قال : ﴿ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ للأحبار من يهود ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ : أى بلائى عندكم وعند آبائكم ،

---

(١) البقرة : ٢٤

لما نجاهم به من فرعون وقومه ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى ﴾ الذى أخذت فى أعناقكم لنبيى أحمد إذا جاءكم ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أنجز لكم ما وعدتكم على تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحداثكم ﴿ وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ ﴾ : أى أن أنزل بكم ما أنزلتُ بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم ، من المسخ وغيره ، ﴿ وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ وعندكم من العلم فيه ما ليس عند غيركم ﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ * وَلاَ تَلْبِسُواْ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : أى لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به ، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم . ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ : أى أتنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم ، أى : وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم من تصديق رسولى ، وتنقضون ميثاقى ، وتجحدون ما تعلمون من كتابى [1] .

* *

● وممن نابذ الرسول ﷺ العداء فى المدينة : نبتل بن الحارث من بنى لوذان ابن عمرو بن عوف ، وهو الذى قال له رسول الله ﷺ : « مَن أحب أن ينظر إلى الشيطان ، فلينظر إلى نبتل بن الحارث » ، وكان رجلاً جسيماً أذلم ، ثائر شعر الرأس ، أحمر العينين ، أسفع الخدين [2] ، وكان يأتى رسول الله ﷺ يتحدث إليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال : إنما محمد أُذُن ، مَن حدثه شيئاً صدقه . فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ فيه : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِىَّ

---

(١) البقرة : ٤٠ - ٤٢ ، وانظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٣٣٩/١ وما بعدها .

(٢) الأذلم : الأسود الطويل ، وثائر شعر الرأس : مرتفعه ، والسفعة : حمرة تضرب إلى السواد .

وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

وكان يجلس إلى رسول الله ﷺ يوماً ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : « إنه يجلس إليك رجل أذلم ، ثائر شعر الرأس ، أسفع الخدين ، أحمر العينين ، كأنما قدران من صُفْر ، كبده أغلظ من كبد الحمار ، ينقل حديثك إلى المنافقين ، فاحذره » .

*

● ومنهم مربع بن قيظى من بنى النبيت عمرو بن مالك بن الأوس ، وهو الذى قال لرسول الله ﷺ حين أجاز فى حائطه ، ورسول الله ﷺ عامد إلى أُحُد : لا أُحل لك يا محمد - إن كنت نبياً - أن تمر فى حائطى .

وأخذ فى يده حفنة من تراب ثم قال : واللهِ لو أعلم أنى لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به .

فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوه ، فهذا الأعمى ، أعمى القلب ، أعمى البصيرة » ، فضربه سعد بن زيد ، أخو بنى عبد الأشهل بالقوس فشجه .

وأخوه أوس بن قيظى ، وهو الذى قال لرسول الله ﷺ يوم الخندق : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة (٢) ، فأذن لنا فلنرجع إليها ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ (٣) .

*

● ومن بنى أمية بن زيد بن مالك : وديعة بن ثابت ، وهو ممن بنى مسجد الضرار ، وهو الذى قال : إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله تبارك وتعالى :

---

(١) التوبة : ٦١ (٢) أى معورة للعدو وضائعة . (٣) الأحزاب : ١٣ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) .

*

● بل وحاول اليهود - لعنهم الله - قتل رسول الله ﷺ عندما خرج إلى بنى النضير يستعينهم فى دية القتيلين من بنى عامر اللذين قتل عمرو بن أمية الضمرى ، للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف .

فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين ، قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببتَ مما استعنت بنا عليه .

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمَن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب - أحدهم - فقال : أنا لذلك . فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلىّ رضوان الله عليهم .

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه ، قاموا فى طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى انتهوا إليه - صلى الله عليه وسلم - فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم سار بالناس حتى نزل بهم . وكانت غزوة بنى النضير التى نزل فيها سورة الحشر بأسرها .

*

(١) التوبة : ٦٥

● عبد الله بن أُبَيّ رأس المنافقين :

وكان عبد الله بن أُبَيّ بن سلول - رأس المنافقين - أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ .

ركب النبى ﷺ يوماً على حمار على إكاف [١] على قطيفة [٢] مذكية ، وأردف أُسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة رضى الله عنهما قبل وقعة بدر ، فسار حتى مرّ بمجلس فيه عبد الله بن أُبَيّ بن سلول ، وذلك قبل أن يسلم عبد الله ، وفى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفى المجلس عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، فلما غشيت المجلس عجاجة [٣] الدابة ، خَمَّر [٤] عبد الله بن أُبَيّ أنفه بردائه ، وقال : لا تغبِّروا [٥] علينا .

فسلّم النبى ﷺ ووقف ونزل ، ودعاهم إلى الله فقرأ عليهم القرآن ، فقال له عبد الله بن أُبَيّ : يا أيها المرء ، إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقاً فلا تؤذنا به فى مجالسنا وارجع إلى رحلك ، فمَن جاءك منا فاقصص عليه .

قال ابن رواحة : بلىٰ يا رسول الله ، فاغشنا به فى مجالسنا فإنّا نحب ذلك . فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكنوا ، فركب النبى ﷺ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة رضى الله عنه فقال : « أى سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حباب » ؟ - يريد عبد الله بن أُبَيّ - فقال سعد : يا رسول الله ، اعف عنه واصفح ، فلقد أعطاك الله ما أعطاك ، ولقد اجتمع أهل هذه البحيرة على أن يتوِّجوه فيعصبوه ، فلما رد ذلك بالحق الذى أعطاك الله ، شَرِق [٦] بذلك ، وذلك الذى فعل به ما رأيت [٧] .

---

(١) الإكاف للحمار كالسرج للفرس .
(٢) وهى كساء له خمل .
(٣) أى الغبار .
(٤) أى غطى .
(٥) أى لا تثيروا .
(٦) أى غص به .
(٧) رواه البخارى عن أسامة بن زيد .

ومرَّ رسول الله ﷺ يوماً بعبد الله بن أُبَىّ وهو فى ظل أطم (١) فقال : غبَّر علينا ابن أبى كبشة ، فقال ابنه عبد الله رضى الله عنه : يا رسول الله ، والذى أكرمك لئن شئتَ لآتينك برأسه ، فقال : « لا ، ولكن بر أباك وأحسن صحبته » (٢) .

وعند الطبرانى ، عن عبد الله بن عبد الله رضى الله عنه أنه استأذن النبى ﷺ أن يقتل أباه ، فقال : « لا تقتل أباك » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قيل للنبى ﷺ : لو أتيتَ عبد الله بن أُبَىّ ؟ فانطلق إليه النبى ﷺ وركب حماراً فانطلق المسلمون يمشون معه ، وهى أرض سبخة (٣) ، فلما أتاه النبى ﷺ قال : إليك عنى ، والله لقد آذانى نتن حمارك . فقال رجل من الأنصار منهم : والله ، لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك . فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتمه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدى والنعال ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُواْ الَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٤) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كنا فى غزاة - قال سفيان مرة : فى جيش - فكسع (٥) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : ياللأنصار ، وقال المهاجرى : ياللمهاجرين .

فسمع بذلك رسول الله ﷺ فقال : « ما بال دعوى الجاهلية » ؟ قالوا: يارسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال : « دعوها فإنها منتنة » ..

---

(١) الأطم : بناء مرتفع ، وجمعه : آطام . (٢) رواه البزار عن أبى هريرة .
(٣) وهى الأرض التى تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر .
(٤) رواه البخارى - والآية من سورة الحجرات : ٩ (٥) أى ضرب الدبر بيده .

obeikandl.com

فسمع بذلك عبد الله بن أُبَيّ فقال : فعلوها ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ . فبلغ النبى ﷺ فقام عمر رضى الله عنه وقال : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » . وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ، ثم إن المهاجرين كثروا بعد [1] .

وعن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصارى رضى الله عنهم : أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع ، وهى التى هدم رسول الله ﷺ فيها « مناة » الطاغية التى كانت بين قفا المشلل وبين البحر ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه فكسر « مناة » .

فاقتتل رجلان فى غزوة رسول الله ﷺ تلك ، أحدهما من المهاجرين والآخر من « بهز » - وهم حلفاء الأنصار - فاستعلى الرجل الذى من المهاجرين على البهزى فقال : يا معشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار ، قال المهاجرى : يا معشر المهاجرين ، فنصره رجال من المهاجرين ، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شئ من القتال .

ثم حُجِزَ بينهم [2] ، فانكفأ [3] كل منافق أو رجل فى قلبه مرض إلى عبد الله بن أُبَيّ بن سلول ، فقال : قد كنت ترجى وتدفع ، فأصبحتَ لا تضر ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب - وكانوا يدعون كل حديث هجرة : الجلابيب - فقال عبد الله بن أُبَيّ : والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ..

قال مالك بن الدخشن - وكان من المنافقين - : ألم أقل لكم لا تنفقوا على مَن عند رسول الله (ﷺ) حتى ينفضوا ؟

---

(١) رواه الشيخان . (٢) أى حيل بينهم . (٣) أى رجع .

فسمع بذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فى هذا الرجل الذى قد افتن الناس أضرب عنقه - يريد عبد الله بن أُبَىّ - فقال رسول الله ﷺ : « أَوَ قاتله أنت إن أمرتك بقتله » ؟ فقال عمر : نعم ، والله لئن أمرتنى بقتله لأضربن عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » .

فأقبل أسيد بن حضير رضى الله عنه - وهو أحد الأنصار ثم أحد بنى عبد الأشهل - حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فى هذا الرجل الذى قد افتن الناس أضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « أَوَ قاتله أنت إن أمرتك بقتله » ؟ . قال : نعم ، والله لئن أمرتنى بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط الأذنين . فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » .

ثم قال رسول الله ﷺ : « آذنوا بالرحيل » . فهجر بالناس فسار يومه وليلته والغد حتى متع النهار ، ثم نزل فى هجر بالناس مثلها حتى صبح فى ثلاث سارها من قفا المشلل ..

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه ، فقال رسول الله ﷺ : « أى عمر ، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله » ؟ . فقال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « والله لو قتلته يومئذ لأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه ، فيتحدث الناس أنى قد وقعت على أصحابى فأقتلهم صبراً » [1] .

وذكر ابن كثير فى « البداية والنهاية » القصة بطولها ، وفى سياقه : ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أُبَىّ .

---

(١) رواه ابن أبى حاتم .

وأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وعن عاصم بن عمر بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ رضى الله عنه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أُبَيّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمر لى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله .. لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبَيّ يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار .

فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال : لما رجع رسول الله ﷺ من بنى المصطلق ، قام عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ رضى الله عنه فسل على أبيه السيف وقال : لله علىّ أن لا أغمده حتى تقول : محمد الأعزُّ ، وأنا الأذلّ . قال : ويلك ، محمد الأعزُّ وأنا الأذلّ . فبلغت رسول الله ﷺ فأعجبه وشكرها له (٢) .

وعبد الله بن أُبَيّ هذا .. هو الذى تولى كِبْر الإفك على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فقال الله تعالى فيه : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) المنافقون : ٧ - ٨ (٢) رواه الطبرانى . (٣) النور : ١١

وهو الذى قال اللّه عَزَّ وجَلَّ فى شأنه : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١).

* *

وكانت العرب حين جاءهم الرسول ﷺ على بداوتهم ، وفيهم خشونة البدو وغلظتهم .. شأنهم فى ذلك كأرضهم فى غلظتها ووعورة طبيعتها ، ولهذا كانت الغلظة والخشونة طابعهم فى التعامل مع الدين الجديد الذى جاء ليهدم ما توارثوه من عقائد الجاهلية ومفاهيمها .. وبلغت عداوتهم للرسول ﷺ مداها ، فحاربوه بكل ما أوتوا من قوة ، وبذلوا فى إيذائه أقصى جهدهم .. حتى أعزّ اللّه دينه ، ونصر رسوله ، وكان الفتح العظيم لمكة ، آخر حصون الشرك فى جزيرة العرب .

فلما جاء نصر اللّه والفتح ، وأصبحت كلمة اللّه هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وفتح اللّه مكة لرسوله ، ودخل الناس فى دين اللّه أفواجاً .. قام رسول اللّه ﷺ على باب الكعبة مخاطباً قومه ، وكان مما قاله : « يا معشر قريش ، إن اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

ثم قال : « يا معشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل بكم » ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم :

قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وهكذا كان الرسول ﷺ كريماً فى عفوه ، كما كان عظيماً فى حلمه ، وما ترك صلى اللّه عليه وسلم الحلم لحظة واحدة فى حياته كلها ، رغم الخشونة والغلظة التى كانت لا تزال باقية فى كثير من أهل الجزيرة بعد إسلامهم .

---

(١) التوبة : ٨٤ (٢) الحجرات : ١٣

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ . وعليه بُرد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى ، فجذبه جذبة شديدة ، حتى نظرتُ إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ قد أثّرت بها حاشية البُرد من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد ، مُرْ لى من مال الله الذى عندك (!!) فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك ، ثم أمر له بعطاء [1] .

ولهذا كانت الحاجة شديدة إلى نزول الوحى من السماء ، كى يرشد المؤمنين إلى الأسلوب اللائق بمكانة الرسول ﷺ - ذلك الأسلوب الذى يتفق مع تعظيمه وتوقيره . فنزلت الآيات من سورة البقرة ، والنور ، والأحزاب ، والحجرات ، والمجادلة ، وغيرها .. لتحث المؤمنين على الآداب التى يجب اتباعها مع رسول الله ﷺ .

* * *

● حوليات الإسلام فى المدينة :

وفى المدينة أكمل الله تعالى دينه ، وأتم على المؤمنين نعمته ، وأرسى دعائم الإسلام .

فما كاد رسول الله ﷺ يدخل المدينة من ثنية الوداع ، من شماليها ، وذلك فى يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول من العام الأول الهجرى (٢ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) - بعد أربعة أيام قضاها فى قرية قباء المجاورة - حتى بنى مسجدها وهو أول مسجد أسس على التقوى فى الإسلام .

ثم نزل صلى الله عليه وسلم فى ضيافة أبى أيوب خالد الأنصارى - حيث بركت ناقته القصواء أمام داره ، وآخى عليه السلام بين كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخاء دم ونسب تمكيناً للوحدة بين المسلمين الأول .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

ثم وضع أول لبنة فى مسجد المدينة (الحرم النبوى) وعمل فيه بيديه ، وشارك فى بناءه المهاجرون والأنصار ، وكان فناءً مفتوحاً تحيط به جدران من لبن ، فى جانب منه عريش مسقوف بسعف النخل ، وفى جانب حجرات عاطلات هى سكنى أهل بيت رسول اللّه ﷺ ، وفيها بنى عليه السلام بأم المؤمنين عائشة .

وأجاز رسول اللّه ﷺ الأذان للصلاة ، وكان بلال بن رباح رضى اللّه عنه أول مؤذن فى الإسلام .

يقول ابن هشام : « فلما اطمأن رسول اللّه ﷺ بالمدينة ، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفُرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفُرِض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوأوا الدار والإيمان .

وقد كان رسول اللّه ﷺ حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها ، بغير دعوة ، فَهَمّ رسول اللّه ﷺ حين قدمها أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فنُحِت ليضرب به للمسلمين للصلاة .

فبينما هم على ذلك ، إذ رأى عبد اللّه بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه ، أخو بلحارث بن الخزرج ، النداء ، فأتى رسول اللّه ﷺ فقال له : يا رسول اللّه ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف ، مَرَّ بى رجل عليه ثوبان أخضران ، يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت له : يا عبد اللّه ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قال : قلت : ندعو به إلى الصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قال : قلت : وما هو ؟ قال : تقول : « اللّه أكبر اللّه أكبر ، اللّه أكبر اللّه أكبر ، أشهد أنْ لا إله إلاّ اللّه ، أشهد أنْ لا إله إلاّ اللّه ، أشهد أنّ محمداً رسول اللّه ، أشهد أنّ محمداً رسول اللّه ، حى على الضلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، اللّه أكبر اللّه أكبر ، لا إله إلاّ اللّه » .

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ ، قال : « إنها لرؤيا حق ، إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك » .

فلما أذّن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو فى بيته فخرج إلى رسول الله ﷺ ، وهو يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيتُ مثل الذى رأى ، فقال رسول الله ﷺ : « فلله الحمد على ذلك » .

وعن عطاء قال : سمعت عبيد الله بن عمر الليثى يقول : ائتمر النبى ﷺ وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس ، إذ رأى عمر بن الخطاب فى المنام : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذّنوا للصلاة . فذهب عمر إلى النبى ﷺ ليخبره بالذى رأى ، وقد جاء النبى ﷺ الوحى بذلك ، فما راع عمر إلا بلال يؤذّن ، فقال رسول الله ﷺ حين أخبره بذلك : « قد سبقك بذلك الوحى » .

وعن عروة بن الزبير عن امرأة من بنى النجار ، قالت : كان بيتى من أطول بيت حول المسجد ، فكان بلال يؤذّن عليه الفجر كل غداة ، فيأتى بسَحَر ، فيجلس على البيت ينتظر الفجر ، فإذا رآه تمطى ، ثم قال : اللّهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك . قالت : واللهِ ما علمته كان يتركها ليلة واحدة » (١) .

وفى السنة الأولى للهجرة - وهى الرابعة عشر من النبوة - زيدت صلاة الحَضَر ركعتين ، فصارت أربع ركعات .

*

وفى صلاة الظهر يوم السابع عشر من شعبان من السنة الثانية للهجرة ، أوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ بصرف القِبْلة إلى الكعبة .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٣٢٢/١

وكان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة استقبل بيت المقدس ستة عشر شهراً ، قبلة اليهود . وكان يحب أن يصرفه الله إلى الكعبة ، وقال لجبريل عليه السلام ذلك، حتى أنزل الله عليه : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١) .

وكان في ذلك حكمة عظيمة ، ومحنة للناس ، مسلمهم وكافرهم .

فأما المسلمون فقالوا : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (٢) ، وهم الذين هدى الله . ولم تكن بكبيرة عليهم .

وأما المشركون فقالوا : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ ؟ (٣) .

---

(١) البقرة : ١٤٤ - ١٥٠ (٢) آل عمران : ٧ (٣) البقرة : ١٤٢

وأما المنافقون فقالوا : إن كانت القِبْلة الأولى حقاً ، فقد تركها . وإن كانت الثانية هى الحق ، فقد كان على باطل .

ويرد الله تعالى على المشركين بقوله : ﴿ قُل للَّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ ، يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

ويرد على المنافقين بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

ولما كان ذلك عظيماً وطْأ الله سبحانه قبله أمر النسخ وقدرته عليه ، وأنه سبحانه يأتى بخير من المنسوخ أو مثله . ثم عقب ذلك بالمعاتبة لمن تعنت على رسوله ولم يَنْقَدْ له ، ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى ، وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شئ ، ثم ذكر شركهم بقولهم : اتخذ الله ولداً (٣) .

ثم أخبر أن المشرق والمغرب لله ، فأينما ولى عباده وجوههم فثمّ وجهه .

وأخبر رسوله أن أهل الكتاب لا يرضون عنه حتى يتبع قِبْلتهم .

ثم ذكر خليله إبراهيم وبناءه البيت بمعاونة ابنه إسماعيل عليهما السلام ، وأنه جعل إبراهيم إماماً للناس ، وأنه لا يرغب عن ملّته إلا مَن سفه نفسه .

---

(١) البقرة : ١٤٢ (٢) البقرة : ١٤٣

(٣) يضاهئون قول الذين كفروا من اليونيين والبراهمة وقدماء المصريين وغيرهم من كل مشرك كان شركه على أساس : أن الله اتخذ ولداً .

ولم يكونوا يقولون إنها كولادة البَشر ، بل يقولون : إن معبودهم ومقدسهم ووليهم من بنى الإنسان : هو النور الأول الذى فاض وانبثق من الله ، فأخذ كل صفات وخصائص الله . وهذه هى عقيدة كل مشرك ، وإن لم يصرح بها بلسانه .

واقرأ سورة الأنعام وغيرها من السور المكية تفهم ذلك .

ثم أمر عباده أن يأتموا به ، وأن يؤمنوا بما أنزل إلى رسوله محمد ﷺ ، وما أنزل إليهم وإلى سائر النبيين .

وأخبر أن الله - الذى يهدى مَن يشاء إلى صراط مستقيم - هو الذى هداهم إلى هذه القِبْلة التى هى أوسط القِبْل ، وهم أوسط الأمم ، كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب .

وأخبر أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حُجَّة ، إلا الظالمين ، فإنهم يحتجون عليهم بتلك الحجج الباطلة الواهنة التى لا ينبغى أن تُعارَض الرسل بأمثالها ، وليتم نعمته عليهم ويهديهم .

ثم ذكر نعمته عليهم بإرسال الرسول الخاتم ، وإنزال الكتاب . وأمرهم بذكره وشكره ورغّبهم فى ذلك بأنه يذكر مَن ذكره ، ويشكر مَن شكره .

وأمرهم بما لا يتم ذلك إلا به ، وهو الاستعانة بالصبر والصلاة ، وأخبرهم أنه مع الصابرين (١) .

وفى شهر شعبان من هذه السنة - الثانية - فُرض على المسلمين صوم شهر رمضان لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ... الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

وفى الشهر نفسه فُرِضت زكاة المال قبل العيد بيومين .

وفى السنة الثالثة للهجرة نزلت الآيات القاطعة بتحريم الخمر .

وفى السنة الرابعة نزلت الرُخصة فى التيمم . وفيها صلّى الرسول ﷺ صلاة الخوف فى يوم ذات الرقاع .

---

(١) مختصر سيرة الرسول . للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ١٠٤

(٢) البقرة : ١٨٣ - ١٨٧

وفى السنة الخامسة للهجرة - على الأرجح - فُرِضت شريعة الحج لمن استطاع إليه سبيلاً ، وفيها نزلت الآيات الخاصة بآداب النساء فى الحج والزينة ، وفيها نزل التشريع المنظم للتبنى والتشريع المنظم لحد القذف - أى قذف المحصنات بالزنا .

وفى السنة السابعة للهجرة ، نهى رسول الله ﷺ عن زواج المتعة وكان حلاً وشائعاً فى الجاهلية .

وفى السنة التاسعة فُرِضت الصدقات ، وحُرِّم على المشركين الحج ، كما حُرِّم الطواف على العراة .

وفى يوم السبت الخامس والعشرين من ذى القعدة ، خرج الرسول ﷺ قاصداً أداء فريضة الحج لآخر مرة ، وفى التاسع من ذى الحجة وقف على بطاح عرفات يخطب مائة ألف ممن آمنوا برسالته ، فأجمل فى خطبته - خطبة الوداع - ركائز الإسلام من عبادات ومعاملات . وكان إذا انتهى من فقرة رفع رأسه قائلاً : « ألا هل بلغت ؟ اللّهم فاشهد » .

ونزل فى هذه الحجة الآية من سورة المائدة : ﴿ اليَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ من دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (١) .

وكان صلى الله عليه وسلم قد استهل خطبة الوداع بقوله : « أيها الناس ، اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا » .

* *

(١) المائدة : ٣

● غزوات الرسول ﷺ :

وعكف الرسول ﷺ فى المدينة على تأسيس الدولة الإسلامية وإقامة دعائمها ، كما عكف على تجييش الجيوش وإرسال الوفود لنشر الإسلام فيما وراء الجزيرة العربية ، ولم تثنه مؤامرات اليهود أو فتن المنافقين عن رسالته التى بعثه الله بها .

عن جابر رضى الله عنه قال : غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة بنفسه، شهدتُ منها تسع عشرة غزوة وغبتُ عن اثنتين .

وعن ابن إسحاق أنها ست وعشرون غزوة .

وكانت سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه فيما بين أن قدم المدينة إلى أن قبضه الله تعالى : خمسة وثلاثين بين بعث وسرية .

كما كانت أول غزوة غزاها صلى الله عليه وسلم هى غزوة « ودان » - وهى الأبواء - فى شهر صفر من السنة الثانية ، ولم يلق فيها حرباً .. وكانت آخر غزوة غزاها حتى قبضه الله تعالى « تبوك » فى رجب من السنة التاسعة .

ففى السنة الثانية : كانت غزوة الأبواء ، ثم بواط ، ثم غزوة العشيرة ، ثم غزوة بدر الأولى ، ثم غزوة بدر الكبرى ، ثم غزوة بنى سليم .

وفى السنة الثالثة : كانت غزوة الفرع ، ثم غزوة أحد .

وفى السنة الرابعة : كانت غزوة الرجيع ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة ذات الرقاع ، ثم غزوة السويق (بدر الآخرة) .

وفى السنة الخامسة : كانت غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة الخندق (الأحزاب) ، ثم غزوة بنى قريظة .

وفى السنة السادسة : كانت غزوة ذى قرد ، ثم غزوة بنى المصطلق ، ثم غزوة الحديبية .

وفى السنة السابعة : كانت غزوة خيبر .

وفى السنة الثامنة : كانت غزوة مؤتة ، ثم غزوة ذات السلاسل ، ثم فتح مكة ، ثم غزوة هوازن (حنين) ، ثم غزوة أوطاس ، ثم غزوة الطائف .

وفى السنة التاسعة : كانت غزوة تبوك .

وأشهر هذه الغزوات : غزوة بدر الكبرى ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق (الأحزاب) ، وغزوة الفتح ، ثم غزوة تبوك ، لذا نتحدث عن كل منها بشئ من التفصيل .

* *

● غزوة بدر الكبرى :

أما غزوة بدر الكبرى ، فقد وقعت فى رمضان من السنة الثانية للهجرة . حين بلغ رسول الله ﷺ خبر العير المقبلة من الشام مع أبى سفيان بن حرب ، فيها أموال قريش ، فندب رسول الله ﷺ للخروج إليها ، فخرج مسرعاً فى ثلاثمائة وبضع عشرة رجلاً ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان : فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود .

وكان معهم سبعون بعيراً ، يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

فلما كان بالروحاء : رد أبا لبابة ، واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، والراية إلى علىّ ، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ .

ولما قرب من الصفراء : بعث بسبس بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء يتحسسان أخبار العير .

وبلغ أبا سفيان مخرج رسول الله ﷺ . فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، وبعثه حثيثاً إلى مكة ، مستصرخاً قريشاً بالنفير إلى عيرهم ، فنهضوا مسرعين ، ولم يتخلف من أشرافهم سوى أبى لهب ، فإنه عوّض عنه رجلاً بجُعْل ، وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم من بطون قريش إلا بنى عدى

فلم يشهدها منهم أحد وخرجوا من ديارهم كما قال تعالى : ﴿ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصدُونَ عَن سَبِيلِ اللَّه ﴾ (١) ، فجمعهم على غير ميعاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِى المِيعَادِ ﴾ (٢) .

ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش ، استشار أصحابه ، فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً ، فتكلم المهاجرون ، ثم ثالثاً فعلمت الأنصار أن رسول الله ﷺ إنما يعنيهم ، فقال سعد بن معاذ رضى الله عنه : كأنك تُعَرِّض بنا يا رسول الله ؟ - وكان إنما يعنيهم ، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من ديارهم - وكأنك تخشى أن تكون الأنصار ثرى عليهم أن لا ينصروك إلا فى ديارهم ؟ وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فامض بنا حيث شئت ، وصِلْ حبل مَن شئت ، واقطع حبل مَن شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا منها ما شئت، وما أخذت منها كان أحب إلينا مما تركت ، فوالله لئن سرت بنا حتى تبلغ البَرْك من غُمدان لنسيرن معك ، ووالله لئن استعرضتَ بنا هذا البحر لخضناه معك .

وقال المقداد بن الأسود : إذن لا نقول كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اذْهَبْ أنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٣) ، ولكن نقاتل من بين يديك ، ومن خلفك ، وعن يمينك وعن شمالك .

فأشرق وجه رسول الله ﷺ بما سمع منهم ، وقال : « سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدنى احدى الطائفتين ، وإنى قد رأيتُ مصارع القوم » .

وكره بعض الصحابة لقاء النفير ، وقالوا : لم نستعد لهم ، فهو قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ من بَيْتِكَ بالحَقِّ وَإنَّ فَرِيقاً مِّنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فى الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ * وَإذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ

---

(١) الأنفال : ٤٧ (٢) الأنفال : ٤٢ (٣) المائدة : ٢٤ - بلفظ : فاذهب .

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ ﴾ (١) .

وسار رسول الله ﷺ إلى بدر . وخفض أبو سفيان فلحق بساحل البحر ، وكتب إلى قريش : أن ارجعوا فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم فأتاهم الخبر فهموا بالرجوع ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نقدم بدراً فنقيم بها ، نطعم مَن حضر ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب فلا تزال تهابنا أبداً وتخافنا .

فأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع ، فلم يفعلوا ، فرجع هو وبنو زهرة ، فلم يزل الأخنس فى بنى زهرة مطاعاً بعدها .

وأراد بنو هاشم الرجوع ، فقال أبو جهل : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع . فساروا ، إلا طالب بن أبى طالب فرجع .

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل على ماء أدنى مياه بدر ، فقال الحباب بن المنذر : إن رأيتَ أن نسير إلى قُلُبٍ - قد عرفناها - كثيرة الماء عذبة ، فتنزل عليها ، ونغوِّر ما سواها من المياه ؟

وأنزل الله تعالى فى تلك الليلة مطراً واجداً ، وصلُب الرمل ، وثبَّت الأقدام ، وربط على قلوبهم .

ومشى رسول الله ﷺ فى موضع المعركة ، وجعل يشير بيده ويقول : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله » ، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته صلى الله عليه وسلم (٢) .

فلما طلع المشركون قال رسول الله ﷺ : « اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها ، جاءت تحادُّك ، وتكذِّب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم أحْنِهم الغداة » .

---

(١) الأنفال : ٥ - ٨ (٢) وهذه إحدى معجزاته صلى الله عليه وسلم .

وقام صلى الله عليه وسلم ورفع يديه ، واستنصر ربه ، وبالغ فى التضرع ورفع يديه حتى سقط رداؤه ، وقال : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد فى الأرض بعدُ » .

فالتزمه أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، وقال : حَسْبُك مناشدتك ربك ، يا رسول الله أبشر ، فوالذى نفسى بيده لينجزن الله لك ما وعدك .

واستنصر المسلمون الله واستغاثوه ، فأوحى الله تعالى إلى الملائكة : ﴿ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ ، سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (١) ، وأوحى الله إلى رسوله : ﴿ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (٢) - بكسر الدال وفتحها - قيل : إردافاً لكم ، وقيل : يردف بعضهم بعضاً ، لم يجيئوا دفعة واحدة .

فلما أصبحوا أقبلت قريش فى كتائبها . وقلل الله المسلمين فى أعينهم ، حتى قال أبو جهل - لما أشار عتبة بن ربيعة بالرجوع خوفاً على قريش من التفرق والقطيعة ، إذا قتلوا أقاربهم - إن ذلك ليس به ، ولكنه - يعنى عتبة - عرف أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه ، فقد تخوفكم عليه .

وقلل الله المشركين أيضاً فى أعين المسلمين ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وأمر أبو جهل عامر بن الحضرمى - أخا عمرو بن الحضرمى - أن يطلب دم أخيه ، فصاح وكشف عن إسته يصرخ : واعمراه ، واعمراه . فحمى القوم ونشبت الحرب .

وعدّل رسول الله ﷺ الصفوف ، ثم انصرف وغفا غفوة ، وأخذ المسلمين النعاس ، وأبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه مع رسول الله ﷺ يحرسه ، وعنده

---

(١) الأنفال : ١٢ (٢) الأنفال : ٩

سعد بن معاذ وجماعة من الأنصار على باب العريش ، فخرج رسول اللّه ﷺ يثب فى الدرع ، وهو يتلو هذه الآية : ﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١) .

ومنح اللّه المسلمين أكتاف المشركين ، فتناولوهم قتلاً وأسراً ، فقتلوا سبعين واسروا سبعين .

وخرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة : يطلبون المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ، فقالوا : أكفاء كرام ، ما لنا بكم من حاجة ، إنما نريد من بنى عمنا . فبرز إليهم حمزة وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وعلىّ بن أبى طالب .

فقتل علىٌ قِرنه الوليد ، وقتل حمزة قِرنه شيبة ، واختلف عبيدة وعتبة ضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه . فكرٌ حمزة وعلىٌ على قرن عبيدة فقتلاه ، واحتملا عبيدة ، قد قطعت رجله . فقال : لو كان أبو طالب حياً لعلم أنَّا أولى منه بقوله :

ونُسْلِمه حتى نُصَرَّع حوله ونُذْهَلَ عن أبنائنا والحلائل

ومات بالصفراء . وفيهم نزلت : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ ﴾ (٢) فكان علىّ رضى اللّه عنه يقول : « أنا أول مَن يجثو للخصومة بين يدى اللّه عزّ وجلّ يوم القيامة » .

ولما عزمت قريش على الخروج ، وذكروا ما بينهم وبين بنى كنانة من الحرب ، فتبدى لهم إبليس فى صورة سُراقة بن مالك فقال : ﴿ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ (٣) ، فلما تعبأوا للقتال ، ورأى الملائكة ، فَرَّ

(١) القمر : ٤٥ (٢) الحج : ١٩ (٣) الأنفال : ٤٨

ونكص على عقبيه فقالوا : إلى أين يا سراقة ؟ فقال : ﴿ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ (١) .

وظن المنافقون ومَن فى قلبه مرض : أن الغلبة بالكثرة فقالوا : ﴿ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ (٢) ، فأخبر الله سبحانه : أن النصر إنما هو بالتوكل على الله وحده .

ولما دنا العدو ، قام رسول الله ﷺ ، فوعظ الناس ، وذكّرهم بما لهم فى الصبر والثبات من النصر ، وأن الله قد أوجب الجنة لمن يستشهد فى سبيله ، فأخرج عمير بن الحمام بن الجموح تمرات من قرنه يأكلهن . ثم قال : « لئن حييتُ حتى أكل تمراتى هذه ، إنها لحياة طويلة » ، فرمى بهن ، وقاتل حتى قُتل فكان أول قتيل .

وأخذ رسول الله ﷺ ملء كفه تراباً ، فرمى به فى وجوه القوم ، فلم تترك رجلاً منهم إلا ملأت عينه ، فهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (٣) .

واستفتح أبو جهل فقال : اللّهم أقطعنا للرحم ، وأتانا بما لا نعرف ، فأحْنِه الغداة .

ولما وضع المسلمون أيديهم على العدو - يقتلون ويأسرون - وسعد بن معاذ واقف عند رسول الله ﷺ فى رجال من الأنصار فى العريش - رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجه سعد الكراهية ، فقال : « كأنك تكره ما يصنع الناس » ؟ قال : أجل ، والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله فى المشركين ، وكان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال .

ولما بردت الحرب ، وانهزم العدو ، قال رسول الله ﷺ : « مَن ينظر لنا ما صنع أبو جهل » ؟ فانطلق ابن مسعود ، فوجده قد ضربه مُعَوِّذ وعوف -

---

(١) الأنفال : ٤٨ (٢) الأنفال : ٤٩ (٣) الأنفال : ١٧

ابنا عفراء - حتى برد ، فأخذ بلحيته فقال : أنت أبو جهل ؟ فقال : لمن الدائرة اليوم ؟ قال : لله ورسوله . ثم قال له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال : وهل فوق رجل قتله قومه ؟ فأخذ رأسه عبد الله بن مسعود ، ثم أتى النبى ﷺ فقال: قتلته ، فقال : « آلله الذى لا إله إلاَّ هو » ؟ - ثلاثاً - ثم قال : « الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . انطلق فأرنيه » ، فانطلقنا فأريته إياه ، فلما وقف عليه قال : « هذا فرعون هذه الأمة » .

وأسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف وابنه علياً ، فأبصره بلال - وكان يعذبه بمكة - فقال : رأس الكفر أمية ؟ لا نجوتُ إن نجا . ثم استحمى جماعة من الأنصار ، واشتد عبد الرحمن بهما يحجزهما منهم ، فأدركوهم ، فشغلهم عن أمية بابنه علىً ففرغوا منه ، ثم لحقوهما فقال له عبد الرحمن : ابرك ، فبرك ، وألقى عليه عبد الرحمن بنفسه ، فضربوه بالسيوف من تحته حتى قتلوه ، وأصاب بعض السيوف رِجْل عبد الرحمن .

وكان أمية قد قال له قبل ذلك : من المعلَّم فى صدره بريش النعام ؟ فقال له: ذاك حمزة بن عبد المطلب . قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل .

وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محْصَن ، فأعطاه النبى ﷺ جَذْلاً من حطب ، فلما أخذه وهزَّه : عاد فى يده سيفاً طويلاً ، فلم يزل يقاتل به حتى قُتِل يوم الرِدَّة .

ولما انقضت الحرب ، أقبل النبى ﷺ ، حتى وقف على القتلى ، فقال : « بئس عشيرة النبى كنتم ، كذَّبتمونى وصدَّقنى الناس ، وخذلتمونى ونصرنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس » .

ثم أمر بهم فسُحبوا حتى ألقوا فى القليب - قليب بدر - ثم وقف عليهم ، فقال : « يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا فلان ، ويا فلان : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى قد وجدتُ ما وعدنى ربى حقاً » .

فقال عمر : يا رسول الله ؛ ما تخاطب من أقوام قد جَيَّفوا ؟ فقال : « ما أنت بأسمع لما أقول منهم » .

ثم ارتحل مؤيّداً منصوراً ، قرير العين ، معه الأسرى والمغانم .

فلما كان بالصفراء ، قسم الغنائم ، وضرب عنق النضر بن الحارث .

ثم لما نزل بعرق الظبية : ضرب عنق عقبة بن أبى مُعَيْط .

ثم دخل المدينة مؤيّداً منصوراً ، قد خافه كل عدو له بالمدينة .

فأسلم بَشَر كثير من أهل المدينة ، ودخل عبد الله بن أُبَىّ - رأس المنافقين - وأصحابه الإسلام .

وكان جملة مَن حضر بدراً : ثلاثمائة وبضع عشرة رجلاً ، واستشهد منهم أربعة عشر رجلاً .

قال ابن إسحاق : كان أناس قد أسلموا ، فلما هاجر رسول الله ﷺ حبسهم أهلهم بمكة ، وفتنوهم فافتتنوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ، فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ (١) .

*

● غزوة أحد :

وأما غزوة أحد فقد وقعت فى شوّال من السنة الثالثة للهجرة . وذلك أن الله تبارك وتعالى لما أوقع بقريش يوم بدر ، وترأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم ، أخذ يؤلب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين ، ويجمع الجموع ، فجمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش ، والحلفاء والأحابيش ، وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا ، ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريباً من جبل أُحد .

---

(١) النساء : ٩٧ ، وانظر : مختصر سيرة الرسول للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ١١٠ وما بعدها (بتصرف) .

فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه فى الخروج إليهم ، وكان رأيه أن لا يخرجوا ، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه السكك ، والنساء من فوق البيوت ، ووافقه عبد الله بن أُبَىّ - رأس المنافقين - على هذا الرأى . فبادر جماعة من فضلاء الصحابة - ممن فاته بدر - وأشاروا على رسول الله ﷺ بالخروج ، وألحوا عليه ، فنهض ودخل بيته ، ولبس لأمته ، وخرج عليهم فقالوا : استكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج ، ثم قالوا : إن أحببتَ أن تمكث بالمدينة فافعل ، فقال : « ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته ، أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » .

فخرج فى ألف من الصحابة ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

وكان رسول الله ﷺ رأى رؤيا ، رأى : « أن فى سيفه ثُلمةً ، وأن بقراً تُذبح ، وأنه يُدخل يده فى درع حصينة .. فتأول الثُلمة : برجل يصاب من أهل بيته ، والبقر : بنفر من أصحابه يُقتلون ، والدرع : بالمدينة » . فخرج وقال لأصحابه : « عليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأساء إذا لقيتم العدو . وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا » .

فلما كان بالشوط - بين المدينة وأُحد - انخذل عبد الله بن أُبَىّ بنحو ثلث العسكر ، وقال : عصانى وسمع من غيرى ، ما ندرى : علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس . فرجع وتبعهم عبد الله بن عمرو - والد جابر - يحرضهم على الرجوع ويقول : « قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم وسبُّهم .

وسأل نفر من الأنصار رسول الله ﷺ : أن يستعينوا بحلفائهم من يهود ، فأبى وقال : « مَن يخرج بنا على القوم من كَثَب » ؟

فخرج به بعض الأنصار ، حتى سلك فى حائط لمربع بن قيظى من المنافقين - وكان أعمى - فقام يحثو التراب فى وجوه المسلمين ويقول : لا أُحِلُّ لك أن

تدخل فى حائطى ، إن كنتَ رسول اللّه . فابتدروه ليقتلوه ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لا تقتلوه ، فهذا أعمى القلب أعمى البصر » .

ونفذ حتى نزل الشِعب من أُحد ، فى عُدْوة الوادى الدنيا ، وجعل ظهره إلى أُحد ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم .

فلما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال ، وهو فى سبعمائة ، منهم خمسون فارساً ، واستعمل على الرماة - وكانوا خمسين - عبد اللّه بن جبير . وأمرهم أن لا يفارقوا مركزهم ، ولو رأوا الطير تختطف العسكر . وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل ، لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم .

وظاهَرَ رسول اللّه ﷺ بين درعين .

وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، وجعل على إحدى المجنبتين : الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى : المنذر بن عمرو . واستعرض الشباب يومئذ ، فردّ مَن استصغر عن القتال - كابن عمر ، وأسامة بن زيد ، والبراء ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت ، وعرابة الأوسى - وأجاز مَن رآه مطيقاً .

وتعبأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف ، وفيهم مائتا فارس ، فجعلوا على ميمنتهم : خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة : عِكرمة بن أبى جهل .

ودفع رسول اللّه ﷺ سيفه إلى أبى دُجانة .

وكان أول مَن بدر من المشركين أبو عامر - عبد عمرو بن صيفى - الفاسق ، وكان يسمى الراهب ، وهو رأس الأوس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شَرِق به وجاهر بالعداوة ، فذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول اللّه ﷺ ووعدهم : بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، فلما ناداهم وتعرَّف إليهم قالوا : لا أنعم اللّه بك علينا يا فاسق ، فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر ، ثم قاتل المسلمين قتالاً شديداً ، ثم أرضخهم بالحجارة .

وأبلىٰ يومئذ أبو دُجانة ، وطلحة ، وحمزة ، وعلىّ ، والنضر بن أنس ، وسعد ابن الربيع بلاءً حسناً .

وكانت الدولة أول النهار للمسلمين ، فانهزم أعداء الله ، وولّوا مدبرين ، حتى انتهوا إلى نسائهم .

فلما رأى ذلك الرماة قالوا : الغنيمة ، الغنيمة . فذكّرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ ، فلم يسمعوا . فأخلوا الثغر ، وكرّ فرسان المشركين عليه ، فوجدوه خالياً ، فجاءوا منه . وأقبل آخرهم حتى أحاطوا بالمسلمين ، فأكرم الله مَن أكرم منهم بالشهادة - وهم سبعون - وولّى الصحابة .

وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ ، فجرحوه جراحات ، وكسروا رباعيته ، وقُتل مصعب بن عمير بين يديه ، فدفع اللواء إلى عليّ بن أبى طالب .

وأدركه المشركون يريدون قتله ، فحال دونه نحو عشرة حتى قُتِلوا ، ثم جلدهم طلحة بن عبيد الله حتى أجهضهم عنه ، وترّس أبو دُجانة عليه بظهره ، والنَّبْل يقع فيه وهو لا يتحرك .

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان ، فأتى بها رسول الله ﷺ فردها بيده ، فكانت أحسن عينيه .

وصرخ الشيطان : إن محمداً قد قُتل ، فوقع ذلك فى قلوب كثير من المسلمين ، فمرّ أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم ، فقالوا : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل الناس ، ولقى سعد بن معاذ فقال : يا سعد ، إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد ، فقاتل حتى قُتل ، ووُجِد به سبعون جراحة .

وقتلَ وَحْشِيٌّ الحبشى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، رماه بحربة على طريقة الحبشة .

وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين . فكان أول مَن عرفه تحت المِغْفَر : كعب ابن مالك ، فصاح بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ؛ هذا رسول الله ، فأشار إليه : أن اسكت ، فاجتمع إليه المسلمون ، ونهضوا معه إلى الشِعْب الذى نزل فيه .

فلما أسندوا إلى الجبل أدركه أُبَيُّ بن خلف على فرس له ، كان يزعم بمكة : أنه يقتل عليه رسول اللّه ﷺ ، فلما اقترب منه طعنه رسول اللّه ﷺ فى ترقوته فكرَّ منهزماً ، فقال له المشركون : ما بك من بأس ، فقال : واللّهِ لو كان ما بى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعين . فمات بسَرِف .

وحانت الصلاة ، فصلّى بهم رسول اللّه ﷺ جالساً .

وشد حنظلة بن أبى عامر على أبى سفيان ، فلما تمكن منه حمل عليه شداد بن الأسود فقتله ، وكان حنظلة جُنباً ، فإنه حين سمع الصيحة - وهو فى فراش زوجه - قام من فوره إلى الجهاد ، فأخبر رسول اللّه ﷺ : أن الملائكة تغسله .

وكان الأصيرم - عمرو بن ثابت بن وَقْش - يأبى الإسلام ، وهو من بنى عبد الأشهل ، فلما كان يوم أُحد : قذف اللّه الإسلام فى قلبه ، للحسنى التى سبقت له ، فأسلم وأخذ سيفه ، فقاتل حتى أثبتته الجراح ، ولم يعلم أحد بأمره . فلما طاف بنو عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم ، وجدوا الأصيرم - وبه رمق يسير - فقالوا : واللّهِ إن هذا الأصيرم ، ثم سألوه : ما الذى جاء بك ؟ أحَدَب على قومك أم رغبة فى الإسلام ؟ فقال : بل رغبة فى الإسلام ، آمنتُ باللّه وبرسوله وأسلمت ، ومات من وقته . فذكروه لرسول اللّه ﷺ فقال : « هو من أهل الجنة » ، ولم يصل للّه سجدة قط .

ولما انقضت الحرب ؛ أشرف أبو سفيان على الجبل ، ونادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم عمر ابن الخطاب ؟ فلم يجيبوه . فقال : أما هؤلاء ، فقد كفيتموهم . فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو اللّه ؛ إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى اللّه لك منهم ما يسوءك .

قال أبو سفيان : اعْلُ هُبَل . فقال رسول اللّه ﷺ : « ألا تجيبوه » ؟ قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا : اللّه أعلى وأجَل » .

قال أبو سفيان : لنا العُزّى ولا عُزّى لكم . قال : « ألا تجيبوه » ؟ قالوا : ما نقول : قال : « قُولوا : اللّه مولانا ، ولا مولى لكم » .

قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سِجال ، فقال عمر : لا سواء ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار .

وأنزل اللّه عليهم النعاس فى بدر وفى أُحد ، والنعاس فى الحرب : من اللّه ، وفى الصلاة ومجالس الذكر : من الشيطان .

وقاتلت الملائكة يوم أُحد عن رسول اللّه ﷺ ، ففى الصحيحين عن سعد قال : « رأيتُ رسول اللّه يوم أُحد ، ومعه رجلان يقاتلان ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، وما رأيتهما قبل ولا بعد » .

ومرّ رجل من المهاجرين برجل من الأنصار - وهو يتشحط فى دمه - فقال : يا فلان ، أشعرتَ أن محمداً قُتل ؟ فقال الأنصارى : إن كان قد قُتل فقد بلّغ ، فقاتلوا عن دينكم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

وكان يوم أُحد يوم بلاء وتمحيص ، اختبر اللّه عَزَّ وجَلَّ به المؤمنين ، وأظهر به المنافقين ، وأكرم فيه مَن أراد كرامته بالشهادة . فكان مما نزل من القرآن فى يوم أُحد : إحدى وستون آية من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ ... إلى قوله جَلَّ شأنه : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

ولما انصرفت قريش تلاوموا فيما بينهم وقالوا : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شَوكتهم ثم تركتموهم ، وقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل بقيتهم .

---

(١) آل عمران : ١٤٤

(٢) آل عمران : ١٢١ - ١٨٠

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فنادى فى الناس بالمسير إليهم وقال : « لا يخرج معنا إلا مَن شهد القتال » ، فقال له ابن أُبَىّ : أركب معك ؟ قال : « لا » .

فاستجاب له المسلمون - على ما بهم من القَرْح الشديد - وقالوا : سمعاً وطاعة .

وقال جابر : يا رسول الله : إنى أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنتُ معك ، وإنما خلَّفنى أبى على بناته ، فائذن لى أسير معك ، فأذَن له .

فسار رسول الله ﷺ ، والمسلمون معه ، حتى بلغوا حمراء الأسد ، فبلغ ذلك أبا سفيان ومَن معه ، فرجعوا إلى مكة ، وشرط أبو سفيان لبعض المشركين شرطاً على أنه إذا مرّ بالنبى ﷺ وأصحابه أن يخوفهم ، ويذكر لهم أن قريشاً أجمعوا للكرَّة عليكم ليستأصلوا بقيتكم ، فلما بلغهم ذلك قالوا : « حسبنا الله ونعْمَ الوكيل » ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ (١) .

*

● غزوة الخندق :

وكانت غزوة الخندق (الأحزاب) فى شوّال من السنة الخامسة ، وسببها : أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين يوم أحد ، خرج أشرافهم - كسَلاَّم بن أبى الحُقَيق - وغيره إلى قريش بمكة ، يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ ، ووعدهم من أنفسهم النصر لهم . فأجابتهم قريش . ثم خرجوا إلى غطفان ، فاستجابوا لهم ، ثم طافوا فى قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم مَن استجاب .

---

(١) آل عمران : ١٧٣ ، وانظر المرجع السابق ص ١١٨ وما بعدها .

فخرجت قريش - وقائدهم أبو سفيان - فى أربعة آلاف ، ووافقهم بنو سليم بمَر الظهران ، وبنو أسد ، وفزارة ، وأشجع وغيرهم . وكان مَنْ وافى الخندق من المشركين : عشرة آلاف .

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه ، استشار أصحابه ، فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة ، فأمر رسول الله ﷺ ، فبادر إليه المسلمون ، وعمل فيه بنفسه ، وكان فى حفره من آيات نبوته ما قد تواتر الخبر به وما سوف نتعرض له عند الحديث عن معجزاته صلى الله عليه وسلم بإذن الله .

وخرج صلى الله عليه وسلم ، وهم يحفرون فى غداة باردة ، فلما رأى ما بهم من الشدة والجوع قال :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفـر للأنصـار ، والمهاجرة

فقالوا مجيبين له :

نحـن الذيـن بايعوا محمداً علـى الجهـاد ما بقينا أبداً

وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، فتحصن بالجبل من خلفه - جبل سَلْع - وبالخندق أمامه . وأمر النساء والذرارى فجُعِلوا فى آطام المدينة .

وانطلق حُيَى بن أخطب إلى بنى قريظة ، فدنا من حصنهم ، فأبَى كَعْبُ بن أسد أن يفتح له ، فلم يزل يكلمه حتى فتح له . فلما دخل الحصن قال : جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش وغطفان وأسد ، على قادتها لحرب محمد ، قال : بل جئتنى والله بذل الدهر ، جئتنى بجَهام قد أراق ماءه ، فهو يُرْعِد ويبرق ، ليس فيه شئ .

فلم يزل حتى نقض العهد الذى بينه وبين رسول الله ﷺ ، ودخل مع المشركين ، وسُرَّ بذلك المشركون ، وشرط كعب على حُيَى : أنهم إن لم يظفروا بمحمد أن يجئ حتى يدخل معهم فى حصنهم ، فيصيبه ما يصيبهم ، فشرط ذلك ووفى له .

وبلغ رسول اللّه ﷺ الخبر ، فبعث إليهم السعدين - سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة - وخوات بن جبير ، وعبد اللّه بن رواحة ليتعرفوا الخبر .

فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون ، وجاهروا بالسب ، ونالوا من رسول اللّه ﷺ . فانصرفوا ولحنوا لرسول اللّه ﷺ لحناً ، فعظم ذلك على المسلمين ، فقال رسول اللّه ﷺ : « اللّه أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين » .

واشتد البلاء ، ونجم النفاق ، واستأذن بعض بنى حارثة رسول اللّه ﷺ فى الذهاب إلى المدينة ، وقالوا : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ (١) .

وأقام المشركون محاصرين رسول اللّه ﷺ شهراً .

ولم يكن بينهم قتال ، لأجل الخندق ، إلا أن فوارس من قريش - منهم عمرو ابن عبد وُدٍّ - أقبلوا نحو الخندق ، فلما وقفوا عليه قالوا : إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها . ثم تيمموا مكاناً ضيقاً منه ، وجالت بهم خيلهم فى السبخة ، ودعوا إلى البراز ، فانتدب لعمرو : علىّ بن أبى طالب ، فبارزه ، فقتله اللّه على يدى علىّ ، وكان من أبطال المشركين ، وانهزم أصحابه .

ولما طالت هذه الحال على المسلمين ، أراد رسول اللّه ﷺ أن يصالح عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف - رئيسى غطفان - على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما ، وجرت المفاوضة على ذلك .

واستشار رسول اللّه ﷺ السعدين - سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة - فقالا : إن كان اللّه أمرك ، فسمعاً وطاعة ، وإن كان شيئاً تحب أن تصنعه صنعناه ، وإن كان شيئاً تصنعه لنا ، فلا . لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة ، إلا قِرىً أو بيعاً .

---

(١) الأحزاب : ١٣

أفحين أكرمنا اللّه بالإسلام وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا ؟ واللّهِ لا نعطيهم إلا السيف .

فصوَّب رأيهما وقال : « إنما هو شئ أصنعه لكم ، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » .

ثم إن اللّه عَزَّ وجَلَّ - وله الحمد - صنع أمراً من عنده خذل به العدو .

فمن ذلك : أن رجلاً من غطفان - يقال له « نعيم بن مسعود » - جاء إلى رسول اللّه ﷺ فقال : قد أسلمتُ ، فمرنى بما شئتَ . قال : « إنما أنت رجل واحد ، فَخَذِّل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خَدْعَة » .

فذهب إلى بنى قريظة - وكان عشيراً لهم - فدخل عليهم ، وهم لا يعلمون بإسلامه ، فقال : إنكم قد حاربتم محمداً ، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا انْشَمروا . قالوا : فما العمل ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . فقالوا : قد أشرتَ بالرأى .

ثم مضى إلى قريش فقال : هل تعلمون وُدِّى لكم ونُصحى ؟ قالوا : نعم . قال : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم ، وإنهم قد أرسلوا إلى محمد : أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يمالئونه عليكم ، فإن سألوكم فلا تعطوهم .

ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك .

فلما كانت ليلة السبت من شوّال بعثوا إلى يهود : إنّا لسنا معكم بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، فاغْدُوا بنا إلى محمد حتى نناجزه ، فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما أصاب مَنْ قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فلا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن .

فلما جاءتهم رسلهم قالوا : قد صدقكم واللّهِ نعيم . فبعثوا إليهم : إنّا واللّهِ لا نبعث إليكم أحداً ، فقالت قريظة : قد صدقكم واللّهِ نعيم . فتخاذل الفريقان .

وأرسل الله على المشركين جنداً من الريح ، فجعلت تقوّض خيامهم ، ولا تدع لهم قِدْراً إلا كفأتها ، ولا طُنُباً إلا قلعته ، وجنداً من الملائكة يزلزلون بهم ، ويلقون فى قلوبهم الرعب ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (١) .

وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال ، وقد تهيأوا للرحيل ، فرجع إليه فأخبره برحيلهم .

فلما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق ، راجعاً والمسلمون إلى المدينة . فوضعوا السلاح ، فجاءه جبريل وقت الظهر فقال : « أقد وضعتم السلاح ؟ إن الملائكة لم تضع أسلحتها ، انهض إلى هؤلاء - » يعنى بنى قريظة - فنادى رسول الله ﷺ : « مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » .

فخرج المسلمون سراعاً ، حتى إذ دنا رسول الله ﷺ من حصونهم ، قال : « يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته » ؟

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار . وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فقال لهم رئيسهم كعب بن أسد : إنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً ، خذوا أيها شئتم : نصدّق هذا الرجل ونتبعه ، فإنكم تعلمون أنه النبى الذى تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً .

قال : فاقتلوا أبناءكم ونساءكم واخرجوا إليه مصلتى سيوفكم حتى يحكم الله بينكم وبينه . قالوا : فما خير العيش بعد أبنائنا ونسائنا ؟

---

(١) الأحزاب : ٩

قال : فانزلوا الليلة ، فعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوكم فيها لأنها ليلة السبت - لعلنا نصيب منهم غرة . قالوا : لا نفسد سبتنا ، وقد علمت ما أصاب مَن اعتدوا فى السبت .

قال : ما بات رجل منكم - منذ ولدته أمه - ليلة من الدهر حازماً .

ثم نزلوا على حكم رسول اللّه ﷺ ، فحكَّمَ فيهم سعد بن معاذ فحكم : أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

وأنزل اللّه تعالى فى غزوة الخندق صدر سورة الأحزاب ، وذكر قصتهم فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴾ ..... إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ (١) .

*

● صلح الحديبية :

خرج رسول اللّه ﷺ - فى السنة السادسة للهجرة - وفى صحبته ألف وأربعمائة من المسلمين يبغى العُمرة ، لهذا وضع المعتمرون السيوف فى قرابها توكيداً لمعنى المسالمة ، غير أن قريشاً أجمعت على صدهم بل واحتجزت عثمان بن عفان رضى اللّه عنه وجماعة معه كانوا رسل المسلمين إلى قريش ، عند ذلك بايع المسلمون الرسول ﷺ على حرب قريش تحت الشجرة بالحديبية ، فمن ثَمَّ سميت بيعة الرضوان .

بَيْدَ أنه صلى اللّه عليه وسلم آثر أن يحقق بالمسالمة ما قد يحصل عليه بالقتال فمن ثَمَّ كان صلح الحديبية وهو أول هُدنة بين المسلمين وقريش ، وتضمن أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين .

وكان كاتب الصلح علىّ بن أبى طالب كرّم اللّه وجهه .

---

(١) الأحزاب : ٩ - ٢٧

وفى مرجعه صلى الله عليه وسلم ، أنزل الله تعالى سورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ (١) .

فقال عمر : أَوَ فتح هو يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُواْ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (٢) .

*

● غزوة الفتح :

وفى شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة وقعت غزوة الفتح ، وسببها أن بكراً عدت على خزاعة فى مائهم « الوَتير » فبيّتوهم ، وقتلوا منهم . وكان فى صلح الحديبية : « أن مَن أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ﷺ فعل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش فعل » ، فدخلت بنو بكر فى عقد قريش ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ .

ثم إن بنى بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له « الوَتير » قريباً من مكة ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم بعضهم مستخفياً ليلاً ، حتى لجأت خزاعة إلى الحرم .

فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر لنوفل بن معاوية الديلى - وكان يومئذ قائدهم - : يا نوفل ، إنّا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة :

---

(١) الفتح : ١ - ٣ (٢) الفتح : ٤ - ٥

لا إلٰه له اليوم ، يا بنى بكر : أصيبوا ثأركم ، فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم . أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

فخرج عمرو بن سالم الخزاعى ، حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة يستصرخه ، فوقف عليه ، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى أصحابه ، فكان مما قاله .

يارب إنى ناشد محمداً حِلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كُنتموا وُلْداً وكنا والداً ثُمَّتَ أسلمنا . ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أيِّدا وادعُ عباد الله يأتوا مددا

إلى آخر أبياته التى يستصرخ فيها رسول الله ﷺ ويناشده النصرة .

فقال رسول الله ﷺ : « نُصِرتَ يا عمرو بن سالم » .

ثم خرج بديل بن وُرقاء فى نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بما أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم . فقال رسول الله ﷺ : « كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العَقد ، ويزيد فى المدة ، بعثته قريش ، وقد رهبوا للذى صنعوا » .

ثم قدم أبو سفيان ، فدخل على ابنته أم حبيبة رضى الله عنها ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنيه ، ما أدرى : أرغبتِ بى عن هذا الفراش ، أم رغبتِ به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت مشرك نَجَس . فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه ، فلم يرد عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبى بكر ، فكلّمه فى أن يكلم النبى ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر ، فقال : أنا أشفع لكم ؟ واللهِ لو لم أجد إلا الذَّر لجاهدتكم به . ثم دخل على علىٍّ ، وعنده فاطمة رضى الله عنها - والحسن غلام يدب بين يديها - فقال : يا علىّ ، إنك أمَسُّ القوم بى رَحِماً ، وإنى جئتُ فى حاجة فلا أرجعن خائباً ،

اشفع لى إلى محمد . فقال : قد عزم رسول الله ﷺ على أمر ، ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فقال لفاطمة رضى الله عنها : هل لك أن تأمرى ابنك هذا ، فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ فقالت : ما يبلغ ابنى ذلك ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ [1] .

فقال : يا أبا الحسن ، إنى رأيت الأمور قد اشتدت علىّ ، فانصحنى .

قال : والله ما أعلم شيئاً يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقُمْ وأجِر بين الناس ، ثم الحَقْ بأرضك .

فقال : أوَ ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟

قال : لا ، والله ما أظنه ، ولكن ما أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان فى المسجد ، فقال : يا أيها الناس ، إنى قد أجرتُ بين الناس . ثم ركب بعيره وانصرف عائداً إلى مكة .

فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئتُ محمداً فكلمته ، فوالله ما ردَّ علىَّ شيئاً ، ثم جئتُ ابن أبى قحافة ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئتُ عمر ابن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو [2] ، ثم جئتُ علياً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار علىَّ بكذا وكذا ، ففعلت . قالوا : فهل أجاز ذلك محمداً ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك .

وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاد ، وقال : « اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى نبغتها فى بلادها » .

فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتاباً ، يخبرهم فيه بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفعه إلى سارة - مولاة لبنى عبد المطلب - فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها . وأتى الخبر رسول الله ﷺ من السماء ، فأرسل

---

(١) انظر كيف تضاءل أبو سفيان حتى طلب أن يجيره الحسن بن علىّ رضى الله عنهما وهو غلام يدب بين يدى أمه !؟

(٢) أى أعدى العدو .

رسول الله ﷺ علياً والزبير إلى المرأة ، فأدركاها بروضة خاخ ، فأنكرت . ففتشا رحلها ، فلم يجدا شيئاً ، فهدداها ، فأخرجته من قرون رأسها [1] ، فأتيا به رسول الله ﷺ ، فدعا حاطباً فقال : « ما هذا يا حاطب » ؟ ، فقال : لا تعجل عليّ يا رسول الله ، والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ولا بدلت ، ولكني كنت امرءاً مُلْصَقاً في قريش ، لست من أنفسهم ، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم ، وكان مَن معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببتُ أن أتخذ عندهم يداً ، قد علمتُ أن الله مظهر رسوله ومتم له أمره .

فقال عمر : يا رسول الله ، دعني أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق .

فقال رسول الله ﷺ : « إنه قد شهد بدراً وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرتُ لكم » . فذرفت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

ثم مضى رسول الله ﷺ ، وعمّى الله الأخبار عن قريش ، لكنهم على وَجَل ، فكان أبو سفيان يتجسس ، هو وحكيم بن حزام ، وبُدَيل بن ورقاء .

وكان العباس رضي الله عنه قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ، فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة ، فلما نزل رسول الله ﷺ « مَرَّ الظهران » نزل عشاءً ، فأمر الجيش فأوقدوا النيران ، فأوقد أكثر من عشرة آلاف نار . فركب العباس بغلة رسول الله ﷺ وخرج يلتمس ، لعله يجد بعض الحطّابة ، أو أحداً يخبر قريشاً ، ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها عنوة .

قال : فوالله إني لأسير عليها ، إذ سمعت كلام أبي سفيان ، وبديل ، يتراجعان . يقول أبو سفيان : ما رأيتُ كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً .

---

(١) وهذه إحدى معجزات النبي ﷺ .

قال : يقول بديل : هذه واللّه خزاعة حَمَشتها الحرب .

قال : يقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها .

فقلت : أبا حنظلة ؟ فعرف صوتى فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك ، فداك أبى وأمى ؟ قال : قلت : هذا رسول اللّه ﷺ فى الناس ، واَصَباحَ قريش واللّه . قال : فما الحيلة !

قلت : واللّه لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة ، حتى آتيه بك فأستأمنه لك .

فركب خلفى ورجع صاحباه ، فجئتُ به ، فكلما مررتُ بنار من نيران المسلمين قالوا : مَن هذا ؟ فإذا رأونا قالوا : عَمُّ رسول اللّه ﷺ على بغلته . حتى مررتُ بنار عمر فقال : مَن هذا ؟ وقام إلىّ ، فلما رأى أبا سفيان قال : عدو اللّه ؟ الحمد للّه الذى أمكن اللّه منك بغير عقد ولا عهد .

ثم خرج يشتدُّ نحو رسول اللّه ﷺ ، وركَضْتُ البغلة فسبقته واقتحمت عنها ، فدخلتُ على رسول اللّه ﷺ ، ودخل عليه عمر فقال : يا رسول اللّه ، هذا أبو سفيان ، قد أمكن اللّه منه بغير عقد ولا عهد ، فدعنى أضرب عنقه ، فقلت : يا رسول اللّه ، إنى قد أجرته .

فلما أكثر عمر ، قلت : مهلاً يا عمر ، فواللّه لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلتَ هذا . قال : مهلاً يا عباس ، فواللّه لإسلامك كان أحبُّ إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفتُ أن إسلامك كان أحبُّ إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من إسلام الخطاب .

فقال رسول اللّه ﷺ : « اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحتَ فائْتنى به » .

ففعلت ، ثم غدوتُ به إلى رسول اللّه ﷺ فقال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يَأنِ لك أن تعلم : أنَّ لا إله إلا اللّه » ؟

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !! واللّه لقد ظننتُ أن لو كان مع اللّه غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد .

قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم : أنى رسول اللّه » ؟

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه ففى النفس حتى الآن منها شئ .

فقال له العباس : ويحك ، أسلم قبل أن يُضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق ، فأسلم .

فقال العباس : إنَّ أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً .

قال : « نعم ، مَن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومَن دخل المسجد فهو آمن » .

فلما ذهب لينصرف قال رسول اللّه ﷺ : « يا عباس ، احْبِسْه بمضيق الوادى عند خَطْم الجبل ، حتى تمر به جنود اللّه فيراها » .

فخرجتُ حتى حبسته ، ومرت القبائل على راياتها ، حتى مرّ به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى كتيبته الخضراء - لكثرة الحديد وظهوره فيهم - فيها المهاجرون والأنصار ، لا يُرى منهم إلا الحَدَق . فقال : سبحان اللّه ! يا عباس ، مَن هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول اللّه فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء وطاقة .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مرّ بأبى سفيان قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُسْتَحلُّ الحرمة ، اليوم أذلّ اللّه قريشاً . فذكره أبو سفيان لرسول اللّه ﷺ فقال : « كذب سعد ، ولكن اليوم يوم تُعظَّم فيه الكعبة ، اليوم أعزَّ اللّه قريشاً » . ثم نزع اللواء من سعد ودفعه إلى قيس ابنه .

ومضى أبو سفيان ، فلما جاء قريشاً صرخ بأعلى صوته : هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به ، فمَن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك

الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومَن دخل المسجد فهو آمن .

فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وسار رسول الله ﷺ حتى دخل مكة من أعلاها ، وأمر خالد بن الوليد فدخلها من أسفلها ، وقال : « إن عَرَض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً، حتى توافونى على الصفا » .

فما عرض لهم أحد إلا أناموه .

وتجمع سفهاء قريش مع عِكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهل بن عمرو بالخَنْدَمة ليقاتلوا ، وكان حماس بن قيس يعد سلاحاً قبل مجئ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت له امرأته : واللهِ ما يقوم لمحمد وأصحابه شئ ، فقال : واللهِ إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم ، ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فما لى علّة ... هــذا ســلاح كامل وإلّهْ

وذو غِرارين سريع السَّلة

ثم شهد الخَنْدَمة ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ، ناوشوهم شيئاً من قتال ، فأصيب من المشركين اثنى عشر ، ثم انهزموا فدخل حماس على امرأته فقال : أغلقى علىّ بابى ، فقالت : وأين ما كنتَ تقول ؟ فقال :

إنــكِ لو شهــدتِ يوم الخَنْدَمهْ ... إذ فَــرَّ صفوان . وفر عكرمــه

وأبــو يزيــد قائــم كالمؤتِمهْ ... واستقبلنا بالسيــوف المسلمــه

يقطعــن كــل ساعد وجِمجمهْ ... ضــرباً فلا يُسمــع إلا غمغمه

لهــم نَهيتٌ خلفنــا وهمهمـــه ... لم تنطقــى باللــوم أدنى كلمه

يقول أبو هريرة رضى الله عنه : أقبل رسول الله ﷺ ، فدخل مكة ، فبعث الزبير على أحد المجنبتين ، وبعث خالداً على المجنبة الأخرى ، وبعث أبا عبيدة ابن الجراح على الحُسَّر . فأخذوا بطن الوادى ورسول الله ﷺ فى كتيبته وقد وَبَّشَت قريش أوباشها ، وقالوا : نقدم هؤلاء ، فإذا كان لهم شئ كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطيناه الذى سألنا .

فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة » . فقلت : لبيك يا رسول الله . قال : « اهتف لى بالأنصار ، ولا تأتينى إلا أنصارى » .

فهتفت بهم فجاءوا ، فأطافوا برسول الله ﷺ فقال : « أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم ؟ - ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى - : احصدوهم حصداً ، حتى توافونى على الصفا » .

قال أبو هريرة : فانطلقنا ، فما يشاء أحد منا أن يقتل منهم ما شاء إلا قتل، وركزت راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ، ثم نهض والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وفى يده قوس ، وحول البيت وعليه : ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، إنَّ الباطل كان زهوقاً ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » ، والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرماً يومئذ ، فاقتصر على الطواف .

فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت فدخلها ، فرأى فيها الصور ، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام فقال : « قاتلهم الله ، والله إن استقسما بها قط » ، وأمر بالصور فمحيت ، ثم أغلق عليه الباب ، هو وأسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب ، حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلى هناك ، ثم دار فى البيت ، وكبَّر فى نواحيه ، ووحَّد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ، ينظرون ماذا يصنع بهم ؟ فأخذ بِعضَادَتى الباب ، وهم تحته ، فقال :

« لا إلٰه إلَّا اللّٰه وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

ألا كل مأثرة ، أو مال ، أو دم ، فهو تحت قَدَمَيَّ هاتين ، إلا سِدانة البيت وسقاية الحاج .

ألا وقتل الخطأ شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن اللّٰه قد أذهب عنكم نَخْوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب » .

ثم تلى هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

ثم قال : « يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم » ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم جلس فى المسجد ، فقام إليه علىٌّ - ومفتاح الكعبة فى يده - فقال : يارسول اللّٰه ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، صلى اللّٰه عليك . فقال صلى اللّٰه عليه وسلم : « أين عثمان بن طلحة » ؟ ، فَدُعِىَ له فقال : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم برّ ووفاء » .

وأمر بلالاً أن يصعد على الكعبة فيؤذن - وأبو سفيان بن حرب ، وعتَّاب بن أسيد ، والحارث بن هشام ، وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة - فقال عتاب : لقد أكرم اللّٰه أسيد أن لا يكون سمع هذا . فقال الحارث : أما واللّٰهِ لو أعلم

---

(١) الحجرات : ١٣

أنه محق لاتبعته . فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرتْ عنى هذا الحصباء .

فخرج عليهم النبى ﷺ فقال : « قد علمتُ الذى قلتم » ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، واللهِ ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك [1] .

ثم دخل صلى الله عليه وسلم دار أم هانئ فاغتسل ، وصلى ثمان ركعات ، صلاة الفتح ، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا بلداً صلوا هذه الصلاة .

ولما استقر الفتح ، أمَّن رسول الله ﷺ الناس كلهم ، إلا تسعة نفر ، فإنه أمر بقتلهم ، وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة : عبد الله بن أبى سَرْح ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعبد العزى بن خَطَل ، والحارث بن نفيل ، ومَقيس بن صُبابة ، وهبَّار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل ، وسارة مولاة لبنى عبد المطلب .

فأما ابن أبى سرح ، فجاء فاراً إلى عثمان ، فاستأمن له رسول الله ﷺ ، فقبل منه ، بعد أن أمسك عنه ، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله .

وأما عكرمة ، فاستأمنت له امرأته بعد أن هرب ، وعادت به فأسلم وحسن إسلامه .

وأما ابن خطل ، ومقيس ، والحارث ، وإحدى القينتين : فقتلوا .

وأما هبَّار ، ففر ثم جاء فأسلم وحسن إسلامه .

واستؤمن رسول الله ﷺ لسارة ، ولإحدى القينتين ، فأسلمتا .

فلما كان الغد من يوم الفتح ، قام رسول الله ﷺ فى الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ، إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فلا يحل

---

(١) وهذه معجزة ثانية للنبى ﷺ .

لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر : أن يسفك بها دماً أو يعْضِد بها شجرة . فإن أحدٌ ترخَّص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا له : إنّ الله أذن لرسوله ، ولم يأذن لك ، وإنما أُحلت لى ساعة من نهار » .

وهَمَّ فضالة بن عمير بن الملوح الليثى أن يقتل رسول الله ﷺ ، وهو يطوف . فلما دنا منه قال : « أفضالة » ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : « ماذا تحدَّث به نفسك » ؟ قال : لا شئ ، كنتَ أذكر الله ، فضحك صلى الله عليه وسلم ثم قال : « استغفر الله » ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه (١) .

وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شئ أحب إلىّ منه . قال فضالة : فرجعتُ إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت : هلم إلى الحديث ، فقال : لا . وانبعث فضالة يقول :

قالت : هلم إلى الحديث . فقلت : لا ... يأبى الإله عليك والإسلام

لو قد رأيتِ محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تُكَسَّر الأصنام

لرأيتِ دين الله أضحى بيِّناً ... والشركَ يغشى وجهه الإظلام

وفرّ يومئذ صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، فاستأمن عمير بن وهب رسول الله لصفوان ، فلحقه وهو يريد أن يركب البحر فرده .

واستأمنت أم حكيم بنت الحارث بن هشام لزوجها عِكرمة ، فلحقت به باليمن فردته .

ثم أمر رسول الله ﷺ عَتَّاب بن أسيد الخزاعى فجدد أنصاب الحرم .

وبث صلى الله عليه وسلم سراياه إلى الأوثان التى حول مكة ، فكسرت كلها ، منها : اللَّات ، والعزّى ، ومناة .

---

(١) وهذه معجزة أخرى للنبى ﷺ .

ونادى مناديه بمكة : مَن كانَ يؤمن باللهِ واليوم الآخر ، فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره .

وبعث عمرو بن العاص فى شهر رمضان إلى « سواع » - وهو لهذيل - قال : فأتيته وعنده السادن فقال : ما تريد ؟ قلت : أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قلت : لِمَ ؟ قال : تُمنع . قلت : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك ، وهل يسمع أو يبصر ؟ فدنوتُ منه فكسرته . وأمرتُ أصحابى فهدموا بيت خزانته ، فلم نجد فيه شيئاً ، فقلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمتُ للّه ..

ثم بعث سعد بن زيد بن مالك الأشهلى الأنصارى ، فى شهر رمضان إلى « مناة » ، وكانت عند قُديد بالمشلل ، للأوس والخزرج وغسان وغيرهم .

فخرج فى عشرين فارساً حتى انتهى إليها ، وعندها سادنها فقال : ما تريد ؟ قال : هدمها . قال : أنت وذاك .

فأقبل سعد يمشى إليها ، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ، ثائرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها . فقال لها السادن : مناةُ ، دونك بعض عُصاتك . فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه ، ولم يجدوا فى خزانتها شيئاً [1] .

*

● غزوة تبوك :

وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول اللّه ﷺ ، ووقعت فى شهر رجب من السنة التاسعة .

وقد كانت هذه الغزوة فى زمان عُسرة من الناس ، وجدب من البلاد ، حين طابت الثمار ، فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، وكان صلى اللّه عليه وسلم

---

(١) انظر : مختصر سيرة الرسول للإمام محمد بن عبد الوهاب ص١٤٥ وما بعدها (بتصرف) .

قَلَّما يخرج فى غزوة إلا وَرَّى بغيرها ، إلا ما كان منها ، فإنه جَلاَّها للناس لبُعْد الشُّقة ، وشدة الزمان .

فقال ذات يوم - وهو فى جهازه - للجَدِّ بن قيس : « هل لك فى جلاد بنى الأصفر » ؟ فقال : يا رسول الله ، أوَ تأذن لى ولا تفتنِّى ؟ فقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى خشيتُ إن رأيتُ نساء بنى الأصفر أن لا أصبر ، فقال : « قد أذنتُ لك » ... ففيه نزلت : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّى وَلاَ تَفْتِنِّى ، أَلا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وقال قوم من المنافقين ، بعضهم لبعض : لا تنفروا فى الحر ، فنزل : ﴿ وَقَالُواْ لا تَنفِرُواْ فِى الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ، لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

ثم إن رسول الله ﷺ حضَّ أهل الغنى على النفقة ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان ثلاثمائة بعير بأحلاسها ، وأقتابها وعدتها ، وألف دينار عَيْناً .

وجاء البكَّاءون - وهم سبعة - يستحملون رسول الله ﷺ فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون .

يقول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ للَّه وَرَسُولِه ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ من سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ (٣) .

وقام عُلبة بن يزيد ، فصلى من الليل وبكى ثم قال : « اللَّهم إنك أمرت

---

(١) التوبة : ٤٩ (٢) التوبة : ٨١ (٣) التوبة : ٩١ - ٩٢

بالجهاد ورغَّبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسولك ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها : من مال ، أو جسد ، أو عِرض » . ثم أصبح مع الناس ، فقال النبى ﷺ : « أين المتصدق هذه الليلة » ؟ فلم يقم أحد . ثم قال : « أين المتصدق » ؟ فلم يقم . فقام إليه فأخبره ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أبشر ، فوالذى نفس محمد بيده ، لقد كتبتْ فى الزكاة المتقبلة » [1] .

وجاء المَعذِّرون من الأعراب ليؤذن لهم ، فلم يعذرهم .

واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى ، فلما سار رسول الله ﷺ ، تخلف عبد الله بن أُبَىّ ومَن كان معه ، وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب ، منهم الثلاثة - كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وأبو خيثمة السالمى ، وأبو ذر ، ثم لحقاه ، وشهدها رسول الله ﷺ فى ثلاثين ألفاً من الناس ، والخيل عشرة آلاف فرس ، وأقام بها عشرين ليلة يقصر الصلاة ، وهرقل يومئذ بحمص .

ولما خرج رسول الله ﷺ ، خلَّف علياً على أهله ، فقال المنافقون : ما خلفه إلا استثقالاً له ، وتخففاً منه . فأخذ سلاحه ولحق به بالجُرْف فقال : يا نبى الله ، زعم المنافقون أنك ما خلفتنى إلا استثقالاً ، فقال : « كذبوا ، ولكنى خلفتك لما تركتُ ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أوَ لا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبى بعدى » .. فرجع .

ودخل أبو خيثمة إلى أهله فى يوم حار ، بعد ما سار رسول الله ﷺ أياماً ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائط ، قد رَشَّت كل واحدة منهما عريشها ، وبَرَّدت له ماءً ، وهيأت له طعاماً . فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا ، فقال : رسول الله فى الضَّحِّ والريح والحر ،

---

(١) وهذه أيضاً إحدى معجزات النبى ﷺ .

وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيئ وامرأة حسناء ؟ ما هذا بالنَّصَف . ثم قال : واللّه لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول اللّه ﷺ ، فهيَّئا لى زاداً ، ففعلتا . ثم قدَّم ناضحه فارتحله ، ثم خرج حتى أدرك رسول اللّه ﷺ حين نزل تبوك .

وقد كان عمير بن وهب الجمحى أدرك أبا خيثمة فى الطريق فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة له : إن لى ذنباً ، فلا عليك أن تتخلف عنى حتى آتى رسول اللّه ﷺ ، ففعل .

حتى إذا دنا من رسول اللّه ﷺ قال الناس : راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول اللّه ﷺ : « كن أبا خيثمة » قالوا : يا رسول اللّه ، هو واللّه أبو خيثمة . فلما أناخ أقبل فسلَّم على رسول اللّه ﷺ فقال له : « أولى لك يا أبا خيثمة » فأخبره الخبر ، فقال له خيراً ، ودعا له [1] .

وقد كان رسول اللّه ﷺ ، لما مرَّ بالحِجْر - من ديار ثمود - قال : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذَّبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، لا يصيبكم مثل ما أصابهم » ، وقال : « لا تشربوا من مائها شيئاً ، ولا تتوضئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً ، وأمرهم أن يهريقوا الماء ، وأن يستقوا من البئر التى كانت تردها الناقة .

وفى صحيح مسلم عن أبى حميد الساعدى قال : « انطلقنا حتى قدمنا تبوك ، فقال رسول اللّه ﷺ : « سَتَهُبُّ عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يَقُمْ أحد منكم ، فمَن كان له بعير فليشد عقاله » . فهبت ريح شديدة ، فقام رجل ، فحملته الريح حتى ألقته بجبل طئ » .

---

(١) وهذه معجزة أخرى للنبى ﷺ .

وأصبح الناس ولا ماء معهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فدعا الله تعالى ، فأرسل الله سحابة ، فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء .

ثم سار حتى إذا كان ببعض الطريق جعلوا يقولون : تخلف فلان ، فيقول : « دعوه ، فإن يك فيه خير فسيُلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » .

وتَلَوَّم على أبى ذر بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، ونزل رسول الله ﷺ فى بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا رجل يمشى على الطريق . فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا ذر » فلما تأملوه قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر » فقال : « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويُبعث وحده » (١) .

وفى صحيح ابن حبان عن أم ذر قالت : لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيتُ ، فقال : ما يبكيك ؟ فقلت : وما لى لا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ، وليس عندى ثوب يسعكَ كفناً ، ولا يدان لى فى تغييبك ؟ فقال : أبشرى ولا تبكى ، فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لنفر - وأنا فيهم - : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض ، يشهده عصابة من المسلمين ، وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات فى قرية وجماعة ، فأنا ذلك الرجل ، فوالله ما كذبتُ ، ولا كُذبتُ ، فأبصرى الطريق .

فكنت أشتد إلى الكثيب أتبصر ، ثم أرجع فأمرضه .

فبينا أنا وهو كذلك ، إذا أنا برجال على رحالهم ، كأنهم الرخَم ، تَخُبُّ بهم رواحلهم ، قالت : فأشرتُ إليهم ، فأسرعوا إلىّ حتى وقفوا على . فقالوا : يا أَمَة الله ، مالك ؟ قلت : امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه . قالوا : مَن هو ؟

---

(١) وهذه معجزة ثالثة لرسول الله ﷺ .

قلت : أبو ذر ، قالوا : صاحب رسول الله ﷺ ؟ قلت : نعم ، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه . فقال لهم : أبشروا ، فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ - وذكر الحديث - ثم قال : وإنه لو كان عندى ثوب يسعنى كفناً لى ولامرأتى لم أكفن إلا فى ثوب هو لى ، أو لها . فإنى أنشدكم الله أن لا يكفننى رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً ، وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قال ، إلا فتى من الأنصار قال : يا عم ، أنا أكفنك فى ردائى هذا ، وفى ثوبين فى عَيْبَتى من غزل أمى ، قال : فأنت تكفننى ، فكفنه الأنصارى ، وأقاموا عليه ودفنوه فى نفر كلهم يَمان » .

وصدق رسول الله ﷺ .. لقد مشى أبو ذر وحده يوم اليرموك حتى لحق بالجيش . ومات وحده بالربذة منفياً من زمن عثمان بن عفان ، وسوف يبعث يوم القيامة وحده مصداقاً لقول الرسول ﷺ .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك ، أتاه صاحب أيلة ، فصالحه وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جَرْبا وأذْرَح ، فأعطوه الجزية ، وكتب لهم كتاباً فهو عندهم .

ثم بعث خالد بن الوليد إلى أُكَيدر دُومة ، وقال لخالد : « إنك تجده يصيد البقر » ، فخرج خالد ، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين فى ليلة مقمرة - وهو وعلى سطح له - فبانت البقر تُحُكُّ بقرونها باب القصر . فقالت له امرأته : هل رأيتَ مثل هذا قط ؟ قال : لا والله . قالت : فمَن يترك مثل هذه ؟ قال : لا أحد .

ثم نزل فأمر بفرسه فأُسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ ، فأخذته وقتلوا أخاه ، وقدم به خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلّى سبيله فرجع إلى قريته .

وأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضعة عشر ليلة ، ثم انصرف إلى المدينة .

وعن ابن مسعود أنه كان يحدِّث ، قال : « قمتُ من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر ، فاتبعتها أنظر إليها ، فإذا برسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين [1] المزنى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله ﷺ فى حفرته ، وأبو بكر وعمر يُدلِّيانه إليه ، وهو يقول : « أدلِّيا إلىَّ أخاكما » ، فأدلياه إليه ، فلما هيأه لشقِّه قال : « اللَّهم إنى قد أمسيتُ راضياً عنه ، فارض عنه » قال : يقول عبد الله بن مسعود : يا ليتنى كنت صاحب الحفرة » .

وأقبل رسول الله ﷺ من تبوك ، حتى كان بينه وبين المدينة ساعة ، وكان أصحاب مسجد الضِّرار أتوه - وهو يتجهز إلى تبوك - فقالوا : يا رسول الله ، إنَّا بنينا مسجداً لذى العلَّة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنَّا نحب أن تصلى فيه ، فقال : « إنى على جناح سفر ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم » .

فلما نزل بذى أُوان ، جاءه خبر المسجد من السماء ، فدعا مالك بن الدُّخْشُم ومعن بن عدى فقال : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرِّقاه » فخرجا مسرعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف - وهم رهط مالك بن الدخشم - فقال لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، فدخل إلى أهله ، فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه . وأنزل الله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَىٰ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ، لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزَالُ

---

(١) البجاد : الكساء الأسود .

بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَواْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إلا أن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

قال ابن عباس فى الآية : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر الفاسق : ابنوا مسجدكم ، واستعدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآت بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه .

فلما فرغوا من بنائه ، أتوا النبى ﷺ فقالوا : إنَّا قد فرغنا من بناء مسجدنا ونحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾ ... إلى قوله : ﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَواْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى الشك ، ﴿ إلا أن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعنى بالموت .

ولما دنا رسول الله ﷺ من المدينة ، خرج الناس لتلقيه ، والنساء والصبيان والولائد يقلن :

طلـــع البـدر علينا مـــن ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مـا دعـــا لله داع

وكانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه ، وأنزل الله فيها سورة التوبة .

وكانت تسمى فى زمان النبى ﷺ وبعده : « المبعثرة » لما كشفت من سرائر المنافقين وخبايا قلوبهم .

وفى غزوة تبوك ، كانت قصة تَخَلُّفُ كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية الواقفى ، ممن شهدوا بدراً ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف عن رسول الله ﷺ . فلما عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة جاء المعذِّرون من الأعراب

---

(١) التوبة : ١٠٧ - ١١٠ .

من المنافقين ، يحلفون أنهم كانوا معذورين ، فقبل منهم رسول الله ﷺ ، وأرجأ كعب بن مالك وصاحبيه حتى أنزل الله تعالى فى شأنهم وفى توبتهم - وكانوا من خيار المؤمنين : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) خلفهم الله وأخّر توبتهم ليمحصهم ويطهرهم من ذنب تأخرهم ، لأنهم كانوا من الصادقين (٢) .

* * *

كانت السنة الأولى للهجرة هى السنة التى أذن الله فيها لرسوله ﷺ فى الهجرة ، فسميت « سنة الإذن » .

وسميت السنة الثانية « سنة الأمر بالقتال » - أى قتال الذين كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم ويصدون عن سبيل الله ، إذ من أوجب الواجبات دفع القوة المسلحة بالقوة المسلحة متى استطاع الإنسان إليها سبيلاً ، لقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُواْ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٣) .

وسميت السنة الثالثة « سنة التمحيص والتطهير » لقوله تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) فى الإشارة إلى يوم

---

(١) التوبة : ١١٧ - ١١٩ (٢) المرجع السابق ص ١٧٢ وما بعدها (بتصرف) .

(٣) البقرة : ١٩٠ (٤) آل عمران : ١٤١

أحد حين خرج مشركو قريش فى النصف من شوّال وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب ليثأروا لما أصابهم يوم بدر .

وسميت السنة الرابعة « سنة الترفئة » أى الاتفاق وجمع الشمل .

وسميت السنة الخامسة « سنة الزلزلة » لقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (١) تعبيراً عن شدة حال المسلمين فى يوم الأحزاب حين تحالفت قريش وقبائل غطفان وكنانة مع اليهود على غزو المسلمين فى المدينة .

وسميت السنة السادسة « سنة الاستئناس » إشارة إلى الآية من سورة النور التى نزلت فى هذه السنة خاصة بآداب السلوك وهى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (٢) .

وسميت السنة السابعة « سنة الاستغلاب » ففيها كان فتح خيبر .

وسميت السنة الثامنة « سنة الفتح » - أو « سنة الاستواء » .

وسميت السنة التاسعة « سنة البراءة » - أى التوبة من المنافقين المتخلفين عن الجهاد يوم تبوك ، كما سميت « سنة الوفود » لقدوم أفواج العرب معلنين إسلامهم .

وسميت السنة العاشرة « سنة الوداع » ، أخذت اسمها من حجة الوداع ، إذ كانت آخر خروج للرسول ﷺ إلى بيت الله الحرام بمكة ..

وفى يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة العاشرة للهجرة (٨ يونيه سنة ٦٣٢ الميلادية) اختار الله تعالى إلى جواره نبيه صلى الله عليه وسلم بعد أن حمل الأمانة وبلّغ الرسالة .

* * *

---

(١) الأحزاب : ١١

(٢) النور : ٢٧

● بعوث رسول الله ﷺ :

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية - فى ذى الحجة سنة ست - أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وكتب إليهم كتباً ، فقيل : يا رسول الله ، إن الملوك لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً ، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة ، فصه منه ، نقشه ثلاثة أسطر : « محمد رسول الله » ، وختم به الكتب . فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرَّم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم .

فكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ : عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى، وبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ، كما بعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة اللخمى إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، كما بعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن علىّ الحنفى ، وكلهم يدعوهم - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام .

كما بعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى ، وعمرو بن العاص إلى ملك عُمان ، وسليط بن عمرو إلى هوذة بن علىّ صاحب اليمامة .. واستمرت البعوث التى يرسلها صلى الله عليه وسلم إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام .

* * *

● توافد الوفود على الرسول ﷺ :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، ضربت إليه أكباد الإبل ، تحمل وفود العرب من كل وجه ، فى سنة تسع ، وكانت تسمى سنة الوفود .

وإنما كانت العرب تَرَبَّص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وأمَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهداتهم ، وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك .

وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله ﷺ ، فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، عرفت العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته ،

فدخلوا فى دين الله أفواجاً ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ (١) .

● فقدم عليه عطارد بن حاجب التميمى ، فى أشراف من بنى تميم ، جاءوا فى أسرى بنى تميم الذين أخذتهم سرية عيينة بن حصن الفزارى فى المحرَّم من السنة التاسعة ، وكانوا أحد عشر رجلاً ، وإحدى وعشرين امرأة ، وثلاثين صبياً .. ثم أسلموا وحسن إسلامهم .

● وقدم عليه وفد طئ ، فيهم زيد الخيل - وهو سيدهم - فعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم .

● وقدم عليه الجارود العبدى فى وفد عبد القيس وكان نصرانياً ، فأسلم وأسلم أصحابه .

● وكان صلى الله عليه وسلم قد بعث العلاء بن الحضرمى - قبل فتح مكة - إلى المنذر بن ساوى العَبْدى ، فأسلم وحسن إسلامه .

● وقدم على الرسول ﷺ ، وفد بنى حنيفة ، فيهم مسيلمة الكذاب ، فأتوه وخلفوا مسيلمة فى رحالهم ، فلما أسلموا ذكروا مكانه ، فقالوا : يا رسول الله ، إنَّا قد خلفنا صاحباً لنا فى رحالنا يحفظها لنا ، فأمر له بمثل ما أمر به للقوم ، وقال : « أما إنه ليس بشركم مكاناً » ، يعنى لحفظه ضَيعة أصحابه ، ثم انصرفوا ، فلما أتوا إلى اليمامة ، ارتد عدو الله وتنبأ ، وقال : إنى أُشْرِكتُ فى الأمر معه ، وقال للوفد : ألم يقل لكم : « أما إنه ليس بشركم مكاناً » ؟ ما ذاك إلا لما كان يعلم أنى أُشْرِكتُ فى الأمر معه ، ثم جعل يسجع لهم السجعات ، مضاهاة للقرآن ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بالنبوة .

---

(١) سورة النصر كاملة ، وانظر : مختصر سيرة الرسول - مرجع سابق - ص ١٧٨ وما بعدها (بتصرف) .

● وتوالى قدوم الوفود إلى المدينة معلنة إسلامها ، منها : وفد بنى أسد وفيهم طليحة الذى ارتد بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ثم عاد فحسن إسلامه ، ووفد بَلِى ، وبَهْراء ، وفزارة ، والبكّاء ، وسعد بن بكر ، وغيرها من الوفود كوفد : بنو عبد المدان ، وكندة وفيهم الأشعث ، ومنهم أُزْد شَنُوءَة وفيهم صرد بن عبد الله ، وبنو عذرة ، وهمدان ، وتجيب ، وغسان ، وبنو محارب ، وبنو عبس ، وبنو مذحج ، وغيرهم . جاءوا ومعهم رؤوسهم وشعراؤهم وصدقات أموالهم ، وممن جاء - فى السنة العاشرة للهجرة - معلناً إسلامه : جرير الشاعر .

* * *

● أزواجه .. صلى الله عليه وسلم :

أول أزواجه - صلى الله عليه وسلم - خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، تزوجها رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة - وقيل : ثلاث وعشرون . وسنها رضى الله عنها أربعون أو فوق الأربعين ، فولدت له أولاده كلهم عدا إبراهيم : القاسم ، وعبد الله ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة رضى الله عنهم جميعاً ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت فى العام العاشر من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد عمه أبى طالب بأيام ، وكان عمرها رضى الله عنها حين ماتت ٦٥ سنة .

- فلما ماتت خديجة رضى الله عنها تزوج عليه الصلاة والسلام سودة بنت زمعة رضى الله عنها ، ولم يرو أنها ذات جمال ولا شباب . إنما كانت أرملة للسكران بن عمرو بن عبد شمس . كان زوجها من السابقين إلى الإسلام من مهاجرى الحبشة ، فلما توفى عنها تزوجها رسول الله ﷺ ، قال الزهرى : تزوجها قبل عائشة وهو بمكة ، وبنى بها بمكة أيضاً ، وقال غيره : تزوج عائشة قبلها وإنما ابتنى بسودة قبل عائشة لصغر عائشة ، وماتت رضى الله عنها عام ٢٣ فى خلافة عمر بن الخطاب .

- ثم تزوج صلى الله عليه وسلم عائشة بنت الصدِّيق رضى الله عنهما وأرضاهما ، وكانت صغيرة فلم يدخل بها إلا بعد الهجرة سنة اثنتين بالمدينة ، ولم يتزوج صلى الله عليه وسلم بكراً غيرها ، وكانت أحب نسائه إليه ، وقيل : كان سنها حين تزوجها رسول الله ﷺ تسع سنوات ، وبقيت معه تسع سنوات وخمسة أشهر ، وتوفى عنها رسول الله ﷺ ، وماتت رضى الله عنها سنة ٥٨ فى خلافة معاوية ، وكان لها من العمر حين ماتت ٦٦ سنة .

- ثم تزوج حفصة بنت عمر رضى الله عنهما بعد الهجرة بسنتين وأشهر ، سنة ثلاث ، تزوجها ثيباً بعد ما عرضها أبوها على أبى بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا ، فوعده النبى ﷺ خيراً منهما وتزوجها ، وماتت رضى الله عنها سنة ٤٥ فى خلافة معاوية ، وكان لها من العمر حين ماتت ٦٧ سنة .

- وتزوج زينب بنت خزيمة الهلالية (أم المساكين) سنة ثلاث ، وكان زوجها الأول عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، قُتل يوم بدر ، وقيل : كان زوجها قبل النبى ﷺ هو عبد الله بن جحش الأسدى المستشهد يوم أحد ، ولعل هذا هو الأقرب ، وأقامت رضى الله عنها عند رسول الله ﷺ شهرين أو ثلاثة ، ثم ماتت سنة ٤ ولها من العمر ٣٠ سنة ، ولم يمت من أزواجه قبلها غيرها وغير خديجة رضى الله عنها .

- وتزوج أم سلمة (هند) بنت أمية رضى الله عنها سنة أربع ، وكانت قبله زوجاً لأبى سلمة الذى جُرِح فى أحد ، وظل جرحه يعاوده حتى مات به ، فتزوج رسول الله ﷺ أرملته ، وضم إليه عيالها من أبى سلمة ، وماتت رضى الله عنها سنة ٥٩ فى خلافة يزيد بن معاوية ، وهى آخر أمهات المؤمنين موتاً بعد رسول الله ﷺ ، وكان لها من العمر حين ماتت ٨٤ سنة .

- وتزوج زينب بنت جحش رضى الله عنها ، بعد أن زوجها لمولاه ومتبناه زيد ابن حارثة فلم تستقم حياتهما فطلقها ، فزوجها الله تعالى لرسوله ﷺ من فوق

سبع سموات سنة خمس - وقيل غير ذلك ، وكانت رضى الله عنها جميلة وضيئة ، وهى التى كانت عائشة رضى الله عنها تحس أنها تساميها ، لنسبها من رسول الله ﷺ - وهى بنت عمته - ولوضاءتها ، وماتت رضى الله عنها سنة ٢٠ فى خلافة عمر ، وكانت أول أزواجه - صلى الله عليه وسلم - لحوقاً به بعد موته كما أخبر ، وكان عمرها رضى الله عنها حين ماتت ٥٣ سنة .

- وتزوج جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق بعد غزوة بنى المصطلق فى أواسط السنة السادسة الهجرية - وقيل : سنة خمس - قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث فى أسهم الثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته عن نفسها ، وكانت امرأة حلوة مليحة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه فى كتابتها ، قالت عائشة : فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ! وعرفت أنه سيرى منها - صلى الله عليه وسلم - ما رأيت ، فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعتُ فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته عن نفسى ، فجئتُ أستعينك على كتابتى . قال : « فهل لك فى خير من ذلك » ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أقضى عنك كتابتك وأتزوجك » . قالت : نعم يا رسول الله . قال : « قد فعلت » . وماتت رضى الله عنها سنة ٥٠ فى خلافة معاوية ، وكان لها من العمر حين ماتت ٦٥ سنة .

- وتزوج أم حبيبة (رملة) بنت أبى سفيان بعد الحديبية سنة ست ، وبنى بها سنة سبع ، وكانت رضى الله عنها مهاجرة مسلمة فى بلاد الحبشة ، فارتد زوجها عبيد الله بن جحش إلى النصرانية وتركها ، فخطبها النبى ﷺ وأمهرها عنه نجاشى الحبشة ، وجاءت من هناك إلى المدينة ، وماتت رضى الله عنها سنة ٤٤ فى خلافة معاوية .

- وتزوج صلى الله عليه وسلم - إثر فتح خيبر بعد الحديبية - سنة سبع - صفية بنت حيى بن أخطب زعيم بنى النضير ، وكانت زوجة لكنانة بن أبى حقيق وهو من زعماء اليهود أيضاً . ويذكر ابن إسحاق فى قصة زواجه - صلى الله عليه وسلم - منها : أنها أُتِىَ بها وبأخرى معها من السبى ، فمر بهما بلال رضى الله عنه على قتلى مَن قُتِل من اليهود ، فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها . فقال صلى الله عليه وسلم : « اغربوا عنى هذه الشيطانة » ، وأمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه ، فقال رسول الله ﷺ لبلال - فيما بلغنى - حين رأى بتلك اليهودية ما رأى : « أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما » ؟ . وماتت صفية رضى الله عنها سنة ٥٢ فى خلافة معاوية .

- ثم تزوج ميمونة بنت الحارث بن حزن ، وهى خالة خالد بن الوليد وعبد الله ابن عباس رضى الله عنهما ، وكانت قبل رسول الله ﷺ عند أبى رهم بن عبد العزى ، وقيل : حويطب بن عبد العزى ، وهى آخر مَن تزوج صلى الله عليه وسلم ، تزوجها سنة سبع ، وماتت رضى الله عنها سنة ٦١ فى خلافة معاوية ، وكان لها من العمر حين ماتت ٨١ سنة .

وأما اللواتى تزوجهن ولم يدخل بهن ، أو خطبهن ولم يتم له العقد ، أو استعاذت منه ففارقها ، فقد اخُتلف فيهن وفى أسباب فراقهن اختلافاً كثيراً ولا يحصل من ذكرهن فائدة ..

فمنهن العالية بنت ظبيان ، وأسماء بنت النعمان بن الجون - وقيل : اسمها « أميمة » . والمستعيذة - قيل : هى أميمة ، وقيل : فاطمة بنت الضحاك ، وقيل : مليكة .

ومنهن الغفارية ، رأى بها برصاً ففارقها .

ومنهن أم شريك ، وهبت نفسها للنبى ﷺ ، وأسماء بنت الصلت السلمية ، وليلى بنت الخطيم الأنصارية .

وأما سراريه ، فمنهن مارية القبطية - وهبها له المقوقس ، وهى أم ابنه إبراهيم ، وتوفيت رضى اللّه عنها سنة ١٦ فى خلافة عمر ، ومنهن ريحانة بنت عمرو القرظية ، وفى الاستيعاب : ريحانة بنت شمعون .

* * *

● أولاده وبناته .. صلى اللّه عليه وسلم :

أول أولاده - صلى اللّه عليه وسلم - القاسم ، وبه كان يكنى ، مات رضيعاً، وقيل عاش إلى أن ركب الدابة .

- ثم زينب رضى اللّه عنها ، ولدت وللرسول ﷺ ثلاثون سنة ، وماتت سنة ثمان ، تزوجت أبى العاص بن الربيع ، ففرّق بينهما الإسلام ، ثم ردها الرسول ﷺ بعد إسلامه ، ولدت رضى اللّه عنها علىّ وناهز الاحتلام ، كما ولدت له أيضاً أمامة .

- ثم رقية رضى اللّه عنها ، تزوجت عتبة بن أبى سفيان ، وطلقها قبل الدخول بها فتزوجها عثمان بن عفان رضى اللّه عنه ، وولدت له عبد اللّه الذى مات عن ست سنوات عام ٤ هجرية ، وماتت رضى اللّه عنها يوم وصول البشير بالنصر فى بدر .

- ثم أم كلثوم رضى اللّه عنها ، تزوجت عتيبة بن أبى سفيان ، وطلقها قبل الدخول بها ، فتزوجها عثمان رضى اللّه عنه بعد موت أختها رقية ، ولم تلد منه ، وتوفيت رضى اللّه عنها سنة تسع .

- ثم فاطمة الزهراء رضى اللّه عنها ، تزوجت علىّ بن أبى طالب فى السنة الثانية للهجرة ، وكان عمرها ١٥ سنة وخمسة أشهر ، وانقطع نسل رسول اللّه ﷺ إلا منها حيث ولدت له الحسن والحسين وزينب رضى اللّه عنهم ، وفيهم انحصر النسل الشريف .. توفيت بعد الرسول بستة أشهر ، وهو أصح

ما قيل ، وقيل : ٣ شهور ، وقيل : ٧٠ يوماً ، وكان عمرها رضى الله عنها يوم ماتت ٢٩ سنة .

– عبد الله ، ولد بعد النبوة ، ولذا لقب بالطيب والطاهر ، ومات طفلاً .

– إبراهيم ، ولد للرسول ﷺ سنة ٨ هجرية – وأمه مارية القبطية رضى الله عنها ، ومات عن ١٨ شهراً .

ويقول ابن القيم : « أولاده صلى الله عليه وسلم : أولهم القاسم ، وبه كان يكنى ، مات طفلاً ، وقيل عاش إلى أن ركب الدابة وسار على النجيبة .

ثم زينب – وقيل : هى أسن من القاسم ، ثم رقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .. وقد قيل فى كل واحدة منهن أنها أسن من أختيها .

وقد ذكر عن ابن عباس أن رقية أسن الثلاثة وأم كلثوم أصغرهن ، ثم ولد له عبد الله ، وهل ولد بعد النبوة أو قبلها – اختلاف ، وصحح بعضهم أنه ولد بعد النبوة ، وهل هو الطيب والطاهر ، أو هما غيره على قولين ، والصحيح أنهما لقبان له ، والله أعلم .

وهؤلاء كلهم من خديجة رضى الله عنها ولم يولد له من زوجة غيرها .

ثم ولد له إبراهيم بالمدينة من سريته مارية القبطية سنة ثمان من الهجرة ، وبشَّره بها أبو رافع مولاه ، فوهب له عبداً ، ومات طفلاً قبل الفطام ، واختلف هل صلى عليه أم لا على قولين .

وكل أولاده – صلى الله عليه وسلم – توفى قبله إلا فاطمة رضى الله عنها، فإنها تأخرت بعده بستة أشهر ، فرفع الله لها بصبرها واحتسابها من الدرجات ما فُضِّلت به على نساء العالَمين ، وفاطمة أفضل بناته على الإطلاق ، وقيل : إنها أفضل نساء العالَمين ، وقيل : بل أمها خديجة ، وقيل : بل عائشة ، وقيل : بل بالوقف من ذلك »[1] .

* * *

(١) زاد المعاد لابن القيم : ١/ ٢٥

● صور من داخل البيت النبوى الكريم :

كانت بيوت زوجات النبى ﷺ - إلى أن هدمها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه - بيوتاً باللبن ، ولها حُجَر من جريد النخل مطرورة بالطين ، على أبوابها المسوح [1] من شَعْر أسود ، وكان مقاس الستر منها ثلاث أذرع فى ذراع ، وكان الرجل متوسط القامة إذا وقف فى وسط البيت منها تناول سقفه بيده ، وكان عددها تسعة أبيات بحجرها ، وهى ما بين بيت عائشة رضى الله عنها إلى الباب الذى يلى باب النبى ﷺ إلى منزل أسماء بنت حسن .

وعن عبد الله بن يزيد الهذلى ، أنه رأى بيت أم سلمة رضى الله عنها وحجرتها من لبن ، فسأل أين ابنها فقال : لما غزا رسول الله ﷺ غزوة « دومة » بنت أم سلمة حجرتها بلبن ، فلما قدم رسول الله ﷺ نظر إلى اللبن فدخل عليها أول نسائه فقال : « ما هذا البناء » ؟ فقالت : أردتُ يا رسول الله أن أكف أبصار الناس ، فقال : « يا أم سلمة ، إن شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان » .

وعن عبد الله بن عامر الأسلمى قال : قال لى أبو بكر بن حزم ، وهو فى مصلاه فيما بين الأسطوانة التى تلى حرف القبر التى تلى الأخرى إلى طريق باب رسول الله ﷺ : هذا بيت زينب بنت جحش ، وكان رسول الله ﷺ يصلى فيه ، وهذا كله إلى باب أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس اليوم إلى رحبة المسجد ، فهذه بيوته التى رأيتها بالجريد ، وقد طُرّت بالطين ، عليها مسوح الشَعْر .

ويقول عطاء : فسمعتُ سعيد بن المسيب يقول يومئذ - أى يوم ورود كتاب الوليد بن عبد الملك بإدخال حُجَر أزواج النبى ﷺ فى مسجده - والله لوددتُ أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناشئ أهل المدينة ، ويقدم القادم من الأفق

---

(١) المسوح : متاع العرب ، وهى الستور .

فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ فى حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر .

قال معاذ : فلما فرغ عطاء الخراسانى من حديثه قال عمر بن أبى أنس : كان منها أربعة أبيات بلبن لها حُجَر من جريد ، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حُجَر لها ، على أبوابها مسوح الشَعْر ، ذرعتُ الستر فوجدته ثلاث أذرع فى ذراع والعظم أو أدنى من العظم ، فأما ما ذكرت من البكاء يومئذ فلقد رأيتنى فى مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ منهم أبو سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف ، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وإنهم ليبكون حتى أخضل لحاهم الدمع ، وقال يومئذ أبو أمامة : ليتها تُركت فلم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء ، ويرون ما رضى الله لنبيه عليه السلام ، ومفاتح خزائن الدنيا بيده [1] .

وكان فراش رسول الله ﷺ من أُدَم [2] محشواً ليفاً ، على سرير من جريد - أو حصير - مرمول بشُرط ، وكانت وسادته من أُدَم محشوة بليف !!

وكان صلى الله عليه وسلم يصلى على بساط ، أو حصير ، أو فروة مدبوغة !!

وعن جندب بن سفيان رضى الله عنه قال : أصابت النبى ﷺ أشاءة نخلة فأدمت أصبعه ، فقال : « ما هى إلا أصبع دميت ، وفى سبيل الله ما لقيت » . قال : فحمل فوضع على سرير مرمول بشُرط ، ووضع تحت رأسه مرفقة من أُدَم محشوة بليف ، فدخل عليه عمر وقد أثر الشريط بجنبه ، فبكى عمر ، فقال : « ما يبكيك » ؟ قال : يا رسول الله ، ذكرتُ كسرى وقيصر يجلسون على سرر الذهب ، ويلبسون السندس والاستبرق - أو قال : الحرير والاستبرق - فقال : « أما ترضون أن تكون لكم الآخرة ولهم الدنيا » ؟

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى - لابن سعد - القسم الثانى : ١/ ١٨.

(٢) الأُدَم : الجلد المدبوغ .

قال : وفى البيت أُهَبٌ [1] لها ريح [2] ، فقال : لو أمرت بهذه فأخرجت . فقال : « لا ، متاع الحى » (يعنى الأهل) .

وكان صلى الله عليه وسلم ربما ينام على الحصير - ليس بينه وبين الأرض شئ - حتى يؤثر فى جنبه !!

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت امرأة من الأنصار علىّ ، فرأت فراش رسول الله ﷺ ، عباءة مثنية ، فانطلقت إليه بفراش حشوه صوف ، فدخل علىٌّ رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا » ؟ قلت : يا رسول الله ، فلانة الأنصارية دخلت علىٌّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت هذا . فقال : « رُديه » ، فلم أرده ، وأعجبنى أن يكون فى بيتى حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال : « واللهِ يا عائشة لو شئتُ لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » .

وعنها : أنها كانت تفرش للنبى ﷺ عباءة باثنين ، فجاء ليلة وقد ربعتها فنام عليها فقال : « يا عائشة ، ما لفراشى الليلة ليس كما كان » ؟ قلت : يا رسول الله ، ربعتها ! قال : « فاعيديه كما كان » [3] .

وكان صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء ، وكان عامة خبزهم الشعير ، وما أكل صلى الله عليه وسلم الشعير منخولاً حتى فارق الدنيا ، إنما كانوا يطحنونه ثم ينفخون قشره فيطير ما يطير ، ويستمسكون ما استمسك .

وما شبع صلى الله عليه وسلم من الخبز والزيت مرتين فى يوم ، وما اجتمع فى بطنه طعامان فى يوم قط ، إن أكل لحماً لم يزد عليه ، وإن أكل تمراً لم يزد عليه ، وإن أكل خبزاً لم يزد عليه ..

وعن النعمان بن بشير أنه سمع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يخطب

---

(١) الإهاب : الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل أن يدبغ .

(٢) أى عطنة .

(٣) المرجع السابق ص ١٥٧

ويقول : احمدوا الله ، فربما أتى على رسول الله ﷺ اليوم يظل يتلوى ، ما شبع من الدقل [1] .

وجاءته فاطمة رضى الله عنها يوماً بكسرة خبز ، فقال : « ما هذه الكسرة يا فاطمة » ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال : « أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » .

وعن أبى هريرة قال : كان يمر بآل رسول الله ﷺ هلال ثم هلال ، لا يوقد فى شئ من بيوته نار ، لا لخبز ولا لطبيخ . قالوا : بأى شئ كانوا يعيشون يا أبا هريرة ؟ قال : بالأسودين : التمر والماء . قال : وكان له جيران من الأنصار - جزاهم الله خيراً - لهم منائح يرسلون إليه بشئ من لبن .

وعن مسروق قال : دخلتُ على عائشة أم المؤمنين وهى تبكى ، فقلت : يا أم المؤمنين ، ما يبكيك ؟ قالت : ما أشبع فأشاء أن أبكى إلا بكيت ، وذلك لأن رسول الله ﷺ كانت تأتى عليه أربع أشهر ما يشبع من خبر بُرّ [2] .

* * *

فى هذه البيوت المسرفة فى التواضع ، وعلى هذا الحال من خفض العيش ، عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه رضى الله عنهن ، معيشة هى أقرب ما تكون إلى الكفاف حتى بعد أن فتحت الفتوح ونعم المسلمون بالفئ والغنائم ..

وينقل لنا القرآن الكريم - فيما ينقل - خمس صور من داخل بيوت النبى ﷺ تمثل وقائع خمس فى حياته صلى الله عليه وسلم ، وتحمل كل صورة منها تشريعاً جديداً ينظم حياة الأسرة المسلمة ويُحكم أمورها .

أولى هذه الصور جاءت فى سورة النور ، بمناسبة حادثة الإفك ، تلك الحادثة التى كلفت أطهر النفوس فى تاريخ البَشرية كلها - صلى الله عليه وسلم - آلاماً لا تطاق ، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب فى تاريخها

---

(١) الدقل : ردئ التمر .

(٢) المرجع السابق ص ١١٣

الطويل .. وعلق قلب رسول الله ﷺ ، وقلب زوجه عائشة التى يحبها ، وقلب أبى بكر وزوجه ، وقلب صفوان بن المعطل .. علق هذه القلوب الكريمة شهراً كاملاً بحبال الشك والقلق والألم الذى لا يُطاق .. ثم ما تبع هذه الصورة القاسية من تشريع ربانى بإنزال حد قذف المحصنات .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ، لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ، وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَّوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَّوْلا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وتحدثنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن هذه الآلام التى عانتها فتقول: « كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه .. فأقرع بيننا فى غزوة غزاها (٢) فخرج فيها سهمى ، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعد ما نزلت آية الحجاب ، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل

---

(١) النور : ١١ - ٢٠ .

(٢) غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة الهجرية على الأرجح .

فيه مسيرنا ، حتى فرغ رسول الله ﷺ من غزوته وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل ، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل ومشيتُ حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلتُ إلى الرحل ، فلمستُ صدرى فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعتُ فالتمستُ عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون ، فحملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه .

قالت عائشة : وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعوا إلىّ .

فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت ، وكان صفوان به المعطل السلمى الذكوانى قد عرس من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى ، وقد كان يرانى قبل أن يُضرب علىّ الحجاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفنى فخمّرت وجهى بجلبابى ، واللّه ما كلمنى بكلمة ولا سمعت منه كلمه غير استرجاعه حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة ..

وهلك مَن هلك فىّ ، وكان الذى تولى كبره منهم عبد اللّه بن أُبَىّ بن سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكيتُ حين قدمتها شهراً ، والناس يخوضون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشئ من ذلك ، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول اللّه ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيسلم ثم يقول : « كيف تيكم » ؟ ، فذلك يحزننى ولا أشعر بالشر .

حتى خرجتُ بعد ما نقهتُ وخرجت معى أم مسطح قِبَل المناصع وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه ، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقتُ أنا وأم مسطح وهى بنت أبى رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصدِّيق رضى اللّه عنه ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلتُ أنا وابنة أبى رهم قِبَل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئسما قلتِ ! أتسبين رجلاً قد شهد بدراً ؟

قالت : أى هنتاه ! أوَ لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟

فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددتُ مرضاً إلى مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى ودخل علىَّ رسول اللّه ﷺ ثم قال : « كيف تيكم » ؟ قلت : تأذن لى أن آتى أبوىَّ ؟ . قالت : وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قِبَلهما ، فأذن لى رسول اللّه ﷺ .

فجئتُ أبوىَّ فقلت : يا أماه ، ما يتحدث الناس ؟ قال : يا بنية هونى عليكِ ، فواللّه لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، قالت : فقلت سبحان اللّه ، وقد تحدَّث الناس بهذا ؟

قالت : فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحتُ أبكى . ودعا رسول اللّه ﷺ علىَّ بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله .

فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول اللّه ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه من الود فقال : يا رسول اللّه ، هم أهلك وما نعلم إلا خيراً .

وأما علىّ بن أبى طالب فقال : لم يضيِّق اللّه تعالى عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك .

فدعا رسول الله ﷺ بريرة [1] فقال : يا بريرة ، هل رأيت شيئاً يريبك من عائشة ؟ قالت بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه [2] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن [3] فتأكله .

قالت : فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أُبىّ بن سلول ، فقال وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ، مَن يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ، فوالله ما علمتُ على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى » .

فقام سعد بن معاذ [4] الأنصارى فقال : يا رسول الله ، أنا أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .

قالت : فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج - وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبتَ لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله .

فقام أسيد بن الحضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبتَ لعمر الله لنقتلنه ، إنك منافق تجادل عن المنافقين .

فثار الحيان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

---

(١) حقق الإمام ابن القيم أن الجارية التى سئلت لم تكن هى بريرة ، لأن بريرة إنما كاتبت وعتقت بعد هذا بمدة طويلة ، إنما قال الإمام علىّ كرّم الله وجهه : سل الجارية تخبرك ، فظن بعض الرواة أنها بريرة فسماها .

(٢) أغمصه : أعيبه .

(٣) الداجن : الشاة فى البيت .

(٤) فى رواية ابن إسحاق أن الذى قال هذا وذلك هو أسيد بن حضير ، وحقق الإمام ابن القيم فى « زاد المعاد » أن سعد بن معاذ كان قد توفى بعد غزوة بنى قريظة ، قبل حديث الإفك ، وأن الذى قال ما قيل هو أسيد بن حضير ، وكذلك قال الإمام ابن حزم مستشهداً برواية عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة ، وليس فيها ذكر سعد بن معاذ .

قالت : وبكيتُ يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى ، قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت علىّ امرأة من الأنصار ، فأذنتُ لها وجلست تبكى معى .

قالت : فبيْنا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول اللّه ﷺ ثم جلس ، ولم يجلس عندى منذ قيل لى ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى شئ ، قالت : فتشهد رسول اللّه ﷺ حين جلس ثم قال : « أما بعد يا عائشة ، فإنه بلغنى عنكِ كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك اللّه ، وإن كنت ألممتِ بذنب فاستغفرى اللّه وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب اللّه عليه » .

قالت : فلما قضى رسول اللّه ﷺ مقالته قلُص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول اللّه ﷺ فيما قال . قال : واللّه ما أدرى ما أقول لرسول اللّه . فقلت لأمى : أجيبى رسول اللّه ، فقالت : واللّه ما أدرى ما أقول لرسول اللّه . فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً فى القرآن - : واللّه لقد عرفتُ أنكم سمعتم هذا وقد استقر فى نفوسكم فصدقتم به ، ولئن قلتُ لكم إنى بريئة واللّه يعلم أنى منه بريئة - لتصدقنى ، واللّه ما أجد لى ولكم مثلاً إلا ما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١) .

قالت : ثم تحولتُ واضطجعتُ على فراشى ، قالت : وأنا واللّه حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن اللّه مبرئى ببراءتى ، ولكن واللّه ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يُتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم اللّه تعالى فىّ بأمر يُتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول اللّه ﷺ رؤيا يبرئنى اللّه تعالى بها .

---

(١) يوسف : ١٨

قالت : فواللّه ما رام رسول اللّه ﷺ منزله ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل اللّه تعالى على نبيه ﷺ ، وأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العَرَق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى أنزل عليه .

قالت : فلما سُرِّىَ عن رسول اللّه ﷺ سرى عنه وهو يضحك ، وكان أول كلمة تكلمها أن قال : « أبشرى يا عائشة ، أما واللّه لقد برأك اللّه » . فقالت لى أمى : قومى إليه ، فقلت : واللّه لا أقوم إليه ولا أحمد إلا اللّه سبحانه وتعالى هو الذى برأنى .

قالت : فأنزل اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .. (العشر آيات) .

فلما أنزل اللّه تعالى هذه الآية فى براءتى قال الصدِّيق - وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : واللّه لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة ما قال ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُواْ أُوْلِى الْقُرْبَىٰ ﴾ .. إلى قوله : ﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٢) - فقال أبو بكر : واللّه إنى أحب أن يغفر اللّه لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كانت عليه ، وقال : لا أنزعها منه أبداً » (٣) .

ويقول اللّه تعالى : ﴿ لا تَحْسِبُوهُ شَرّاً لَّكُم ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٤) .

حقاً إنه لخير ، وأى خير ؟!

فقد كشف عن الكائدين للإسلام فى شخص رسول اللّه ﷺ وأهل بيته .

---

(١) النور : ١١ - ٢١ (٢) النور : ٢٢

(٣) رواه البخارى ومسلم كلاهما عن أبى الربيع الزهرانى ، وانظر أسباب النزول للنيسابورى - طبع دار الكتب العلمية ببيروت - ص ٢١٤ وما بعدها .

(٤) النور : ١١

كما كشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذى فرضه الله تعالى ، وبيَّن مدى الأخطار التى تحيق بالجماعة لو أُطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .. فهى لا تقف عند حد ، وإنما تمضى صاعدة إلى أشرف المقامات . وتتطاول إلى أعلى الهامات ، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج وكل حياد ..

إنه خير .. فقد كشف الله تعالى للجماعة المسلمة بهذه المناسبة عن المنهج القويم فى مواجهة هذا الأمر العظيم .. فيأتى حكمه تعالى فى التشريع الربانى بإنزال حد قذف المحصنات ، فيقول جَلَّ شأنه : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

هذا حكم الله فى مَن يرمون المحصنات بالزنا دون أن يأتوا بأربعة شهداء ، يشهدون برؤيتهم لوقوع الفعل حين حدوثه بأعينهم ..

فما هو الحكم حين يرمى رجل امرأته بهذه التهمة دون أن يكون معه شهود ؟

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما نزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ ... إلى قوله تعالى : ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ - قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال

---

(١) النور : ٤ (٢) النور : ٦ - ٩

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم » ؟ قالوا : يا رسول الله ، إنه رجل غيور ، والله ما تزوج قط إلا بكراً وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من عند الله ، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء ! فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته ، فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشياً فوجد عند أهله رجلاً ، فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني جئتُ أهلي عشياً فوجدت عندها رجلاً فرأيتُ بعيني وسمعتُ بأذني ، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه .

فقال سعد بن عبادة : الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويُبطل شهادته في المسلمين ، فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً ، فقال هلال : يا رسول الله ، إني قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئتُ به ، والله يعلم إني لصادق ، فوالله إنّ رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه ، إذ نزل عليه الوحي ، وكان إذا نزل عليه عرفوا ذلك في تربد جلده ، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي ، فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ﴾ – الآيات كلها – فسرى عن رسول الله ﷺ فقال : « أبشر يا هلال ، فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً » ، فقال هلال : قد كنت أرجو ذاك من ربي »[1] .

* * *

أما الصورة الثانية التي ينقلها إلينا القرآن الكريم من داخل بيوت النبي ﷺ وتمثل ثانية الوقائع في حياته صلى الله عليه وسلم ، فقد جاءت في سورة

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري – مرجع سابق – ص ٢١٢

الأحزاب ، عندما طلب نساؤه - صلى الله عليه وسلم - منه التوسعة فى النفقة عليهن بعد ما وسع الله عليه وعلى المسلمين من فئ بنى قريظة العظيم وما قبله من الغنائم .. فجاء القرار من الله تعالى بتخيير أزواجه صلى الله عليه وسلم بين متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة .. وقد اخترن - رضى الله عنهن - الله ورسوله والدار الآخرة ، ورضين هذا المقام الكريم عند الله ورسوله ﷺ وآثرنه على متاع الحياة ..

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ، وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ (١) .

اختار النبى ﷺ لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف ، لا عجزاً عن حياة المتاع ، فقد عاش حتى فتحت له الأرض ، وكثرت غنائمها ، وعمّ فيؤها ، واغتنى مَن لم يكن له من قبل مال ولا زاد !

---

(١) الأحزاب : ٢٨ - ٣٤

ومع هذا فقد كان الشهر يمضى ولا توقد فى بيوته - صلى الله عليه وسلم - نار ، مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا .

ولكن نساء النبى ﷺ حين رأين السعة والرخاء بعد ما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين ، راجعنه - صلى الله عليه وسلم - فى أمر النفقة .. فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب ، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضا . إذ كانت نفسه - صلى الله عليه وسلم - ترغب فى أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضا ، متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال ، وأن تظل حياته وحياة مَن يلوذون به على ذلك الأفق السامى الوضئ المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوشابها .

وبلغ الأسى به - صلى الله عليه وسلم - أن احتجب عن أصحابه ، وكان احتجابه عنهم أمراً صعباً عليهم ، يهون كل شئ دونه ، وجاءوا فلم يؤذن لهم [1] .

ويحدثنا الإمام أحمد عن هذا الموقف فيقول : « أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس ، والنبى ﷺ جالس ، فلم يؤذن له .

ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له .

ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا ، والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو صلى الله عليه وسلم ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك . فقال : يا رسول الله ، لو رأيتَ ابنة زبير - امرأة عمر - سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها ! فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال : « هنَّ حولى يسألننى النفقة » !

فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده !!

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب : ٢٨٥٣/١ (بتصرف) .

فنهاهما الرسول ﷺ فقلن : واللّهِ لا نسأل رسول اللّه ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

قال : وأنزل اللّه عَزَّ وجَلَّ الخيار ، فبدأ بعائشة رضى اللّه عنها فقال : « إنى ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويكِ » قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ... ﴾ ... الآية .

قالت عائشة رضى اللّه عنها : أفيك أستأمر أبوىّ ؟ بل أختار اللّه ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترتُ .

فقال صلى اللّه عليه وسلم : « إن اللّه تعالى لم يبعثنى معنتاً ، ولكن بعثنى معلماً ميسراً ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترتِ إلا أخبرتها » [1] .

وفى رواية للبخارى : أن عائشة رضى اللّه عنها أخبرت أن رسول اللّه ﷺ جاءها حين أمره اللّه تعالى أن يخيِّر أزواجه . قالت : « فبدأ بى رسول اللّه ﷺ فقال : « إنى ذاكر لك أمراً فلا عليكِ أن لا تستعجلى حتى تستأمرى أبويكِ » - وقد علم أن أبوىّ لم يكونا يأمرانى بفراقه - قالت : ثم قال : « إن اللّه تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ... ﴾ ... إلى تمام الآيتين - فقلت له : ففى أى هذا أستأمر أبوىّ ؟ فإنى أريد اللّه ورسوله والدار الآخرة » .

اختارت عائشة رضى اللّه عنها : اللّه ورسوله والدار الآخرة .. واختار نساء النبى ﷺ : اللّه ورسوله والدار الآخرة ، وقلن : « واللّهِ لا نسأل رسول اللّه ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده » ..

وفى رواية : أنّ الرسول ﷺ فرح بهذا الاختيار ..

ثم تأتى الآيات بآداب يأمر اللّه بها نساء النبى ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك .

---

(١) رواه أحمد ، وأخرجه مسلم من حديث زكريا بن إسحاق .

فقال تعالى مخاطباً نساء النبى ﷺ بأن مَن تأتِ منهن بفاحشة - وهى النشوز وسوء الخُلُق فسوف يضاعف الله لها العذاب ضعفين - وعلى كل تقدير هو شرط ، والشرط لا يقتضى الوقوع - وأن مَن تطع منهن الله ورسوله وتستجب ، فسوف يؤتها تعالى أجرها مرتين ، أى فى الجنة ، فى منازل رسول الله ﷺ فى أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش .

ثم يخاطب الله تعالى نساء النبى - ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك - بأنهن إذا اتقين الله عَزَّ وجَلَّ كما أمرهن ، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ، ولا يلحقهن فى الفضيلة والمنزلة ، ونهاهن عن ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ، حتى لا يطمع فيهن مَن فى قلبه دغل ، وأن يقلن قولاً حسناً جميلاً معروفاً فى الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

وأمرهن تعالى - ونساء الأُمة تبع لهن فى ذلك - أن يلزمن بيوتهن ، فلا يخرجن لغير حاجة - ومن الحوائج الشرعية الصلاة فى المسجد بشرطه - ونهاهن عن التبرج وشبَّهه بتبرج الجاهلية الأولى حيث كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج ، فنهى الله نساء المؤمنين عن ذلك . وقال مقاتل ابن حيان : « والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك منها ، وذلك التبرج » .

نهاهن الله تعالى أولاً عن الشر ، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهى الإحسان إلى المخلوقين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [1] نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت ههنا لأنهن سبب نزول هذه الآية .

---

(١) الأحزاب : ٣٣

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضى الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصلاة يا أهل البيت ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

ثم أمرهن الله تعالى أن يذكرن نعمة الله عليهن بأن جعلهن فى بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فيشكرن الله تعالى على ذلك ويحمدنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ أى ذا لطف إذ جعلهن فى البيوت التى تتلى فيها آيات الله والحكمة - وهى السُّنَّة - خبيراً بهن إذ اختارهن لرسوله أزواجاً .

* * *

كما جاءت الصورة الثالثة التى ينقلها إلينا القرآن الكريم من داخل بيوت النبى ﷺ وتمثل ثالثة الوقائع فى حياته صلى الله عليه وسلم فى سورة الأحزاب أيضاً .. وكانت فى شأن تزويج زينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله ﷺ من زيد بن حارثة مولاه ، وما نزل فى شأنه أولاً من رد أمر المؤمنين والمؤمنات كافة إلى الله ، ليس لهم منه شئ ، وليس لهم فى أنفسهم خيرة ، إنما هى إرادة الله وقدره الذى يسيِّر كل شئ ، ويستسلم له المؤمن الاستسلام الكامل الصريح ، ذلك لأن الإسلام قد جاء ليزيل الفوارق بين السادة والعبيد ويسوى بينهم ، فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، فلا سادة ولا عبيد فى ظل أخوة الإسلام ..

ثم يعقب حادث الزواج حادث الطلاق ، وما وراءه من إبطال آثار التبنى بسابقة عملية ، يُختار لها رسول الله ﷺ بشخصه ، لشدة عمق هذه العادة فى البيئة العربية ، وصعوبة الخروج عليها ، فيقع الابتلاء على رسول الله ﷺ ليحملها فيما يحمل من أعباء الدعوة وتقرير أصولها فى واقع المجتمع ، بعد تقريرها فى أعماق الضمير .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً * وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ

عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١) .

يقول الإمام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات : « انطلق رسول الله ﷺ ليخطب على فتاة زيد بن حارثة رضى الله عنه ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها فخطبها . فقالت : لستُ بناكحته ! فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانكحيه » . قالت : يا رسول الله ، أؤامر فى نفسى . فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ .. قالت : قد رضيته لى يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم » ! قالت : إذن لا أعصى رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسى » .

ويقول الشهيد سيد قطب : « وهذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشئ فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأى ولا قول ، وفى الحديث : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به » .

مكثت زينب رضى الله عنها عند زيد بن حارثة قريباً من سنة ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجعل الرسول ﷺ يقول : « أمسك عليك زوجك واتق الله » .. قال له ذلك أكثر من مرة .

---

(١) الأحزاب : ٣٦ - ٤٠ .

ولما أراد الله تعالى إبطال تقليد التبنى ، ورد الأدعياء إلى آبائهم ، وإقامة العلاقات العائلية على أساسها الطبيعى فقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ، فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (١) .

« وكان لنظام التبنى آثار واقعية فى حياة الجماعة العربية ، ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية فى حياة المجتمع ليمضى بالسهولة التى يمضى بها إبطال تقليد التبنى ذاته ، فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثراً فى النفوس ، ولا بد من سوابق عملية مضادة ، ولا بد أن تُستَقبل هذه السوابق أول أمرها بالاستنكار ، وأن تكون شديدة الوقع على الكثيرين .

وقد زوَّج الرسول ﷺ بنت عمته زينب بنت جحش لزيد بن حارثة - الذى كان متبناه ، وكان يُدعى زيد بن محمد ، ثم دُعِى إلى أبيه - ليحطم بهذا الزواج فوارق الطبقات الموروثة ، وليحقق أن المعيار هو التقوى ، وليقرر هذه القيمة الإسلامية الجديدة بفعل عملى واقعى . ثم شاء الله تعالى أن يحمل نبيه بعد ذلك - فيما يحمل من أعباء الرسالة - مؤنة إزالة آثار نظام التبنى ، فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة ، ويواجه المجتمع بهذا العمل ، الذى لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به ، على الرغم من إبطال عادة التبنى فى ذاتها .. فألهم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن زيداً سيطلق زينب ، وأنه هو سيتزوجها ، للحكمة التى قضى الله بها . وكانت العلاقات بين زيد وزينب قد اضطربت ، وعادت توحى بأن حياتهما لن تستقيم طويلاً » (٢) .

---

(١) الأحزاب : ٤ - ٥

(٢) انظر : فى ظلال القرآن - للشهيد سيد قطب : ٢٨٦٨/٥ (بتصرف) .

أعلم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال : « اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » ، فقال تعالى : قد أخبرتك أنى مزوجكها ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه .

فلما فرغ زيد منها وفارقها زوّجها الله تعالى له ، بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البَشر ، وإنما أباح له تزويجها لئلا يبقى حَرَج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء . إذن فليس على الرسول ﷺ حَرَج فيما أحلّ الله له ، وأمره من تزويج زينب رضى الله عنها التى طلّقها دعيه زيد بن حارثة رضى الله عنه . وهذا حكم الله تعالى فى الأنبياء قبله ، إذ لم يكن ليأمرهم بشئ وعليهم فى ذلك حَرَج ، لأن أمره تعالى الذى يُقدِّره كائن لا محالة ، وواقع لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وكان زواجه - صلى الله عليه وسلم - من زينب رضى الله عنها بعد انقضاء عدّتها ، أرسل إليها زيداً زوجها السابق ، وأحب خلق الله إليه ، أرسله إليها ليخطبها عليه .

عن أنس رضى الله عنه قال : لما انقضت عِدَّة زينب رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « اذهب فاذكرها علىَّ » ، فانطلق حتى أتاها وهى تخمر عجينها ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، وأقول : إن رسول الله ﷺ يذكر . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربى عَزَّ وجَلَّ ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن [1] .

وقد روى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنهما قال : إن زينب

---

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم والنسائى من طرق عن سليمان بن المغيرة .

بنت جحش رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول : « زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات » .

وهكذا .. حينما أراد النبى ﷺ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة فى الجماعة المسلمة أمر زينب بنت جحش - بنت عمته - الشريفة الهاشمية بالزواج من مولاه الذى تبناه : زيد بن حارثة رضى الله عنه .

وعندما أراد الله تعالى إبطال تقليد التبنى ، ورد الأدعياء إلى آبائهم ، أمر رسوله ﷺ أن يتزوج من مطلقة متبناه .

« وما كان على النبى ﷺ من حرج فيما فرض الله له من الزواج بزينب ، وأن يبطل عادة العرب فى تحريم أزواج الأدعياء ، وليس النبى ﷺ فيه بدعاً من الرسل ، فهو أمر يمضى وفق سُنَّة الله التى لا تتبدل ، والتى تتعلق بحقائق الأشياء ، لا بما يحوطها من تصورات مصطنعة لا تقوم على أساس . فهو أمر نافذ مفعول ، لا يقف فى وجهه شئ ولا أحد ، وهو مقدَّر بحكمة وخبرة ووزن ، منظور فيه إلى الغاية التى يريدها الله منه . ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها ، وقد أمر الله تعالى رسوله أن يبطل هذه العادة ويمحو آثارها عملياً ، ويقرر بنفسه السابقة الواقعية ، ولم يكن بُدٌّ من نفاذ أمر الله .

وسُنَّة الله هذه قد مضت فى الذين خلوا من قبل من الرسل ، فهم لا يحسبون للخلق حساباً فيما يكلفهم الله به من أمور الرسالة ، ولا يخشون أحداً إلا الله الذى أرسلهم للتبليغ والعمل والتنفيذ ، فهو وحده الذى يحاسبهم ، وليس للناس عليهم من حساب ..

يقول تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (١) ، فزينب رضى الله عنها ليست حليلة ابنه ، وزيد رضى الله عنه ليس ابن محمد ﷺ ، إنما هو ابن حارثة ، ولا حَرَج إذن فى الأمر حين يُنظر إليه بعين الحقيقة الواقعة .

---

(١) الأحزاب : ٤٠ .

والعلاقة بين محمد ﷺ وبين جميع المسلمين - ومنهم زيد بن حارثة - هى علاقة نبى بقومه ، وليس هو أباً لأحد منهم ، ومن ثَمَّ فهو يشرِّع الشرائع الباقية لتسير عليها البَشرية ، وفق آخر رسالة للسماء إلى الأرض ، التى لا تبديل فيها بعد ذلك ولا تغيير » [1] .

* *

ومن سورة الأحزاب أيضاً تأتى الصورة الرابعة التى ينقلها إلينا القرآن الكريم من داخل بيوت النبى ﷺ ، وقد تناولت تنظيم الحياة الزوجية للنبى ﷺ ، وتُبيِّن مَن يحل له من النساء المؤمنات ومَن يحرمن عليه ، ثم تستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبى ﷺ وأزواجه فى حياته وبعد وفاته ، وتقرير احتجابهم إلا على آبائهن أو أبنائهن أو إخوانهن ... إلخ .

كما تستطرد إلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول اللّه ﷺ فى أزواجه وبيوته وشعوره ، وبلعنهم فى الدنيا والآخرة ، مما يشى بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئاً كثيراً ، ثم يعقب على هذا بأمر أزواج النبى وبناته - ونساء المؤمنين كافة - أن يدنين عليهن من جلابيبهن ..

يقول اللّه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً * تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ، وَاللَّهُ

(١) المرجع السابق : ٥/ ٢٨٧ (بتصرف) .

يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ، وكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً * لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ من بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ منْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيباً ﴾ (١) .

« يبيِّن اللّه لرسوله ﷺ ما يحل له من النساء ، وما فى ذلك من خصوصية لشخصه ولأهل بيته ، بعد ما نزلت آية سورة النساء التى تجعل الحد الأقصى للأزواج أربعاً : ﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ (٢) .

وكان فى عصمة النبى ﷺ فى هذا الوقت تسع نساء ، تزوج بكل منهن لمعنى خاص ، عائشة وحفصة ابنتا صاحبيه أبى بكر وعمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت خزيمة من المهاجرات اللواتى فقدن أزواجهن وأراد النبى ﷺ تكريمهن ، ولم يكنَّ من ذوات جمال ولا شباب ، إنما كان معنى التكريم لهن خالصاً فى هذا الزواج . وزينب بنت جحش وقد علمنا قصة زواجها ، وقد كان هناك تعويض لها كذلك عن طلاقها من زيد الذى زوجها رسول اللّه ﷺ منه فلم تفلح الزيجة لأمر قضاه اللّه تعالى ، وعرفناه فى قصتها ، ثم جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وكانتا من السبى فأعتقهما رسول اللّه وتزوج بهما الواحدة تلو الأخرى ، توثيقاً لعلاقته بالقبائل ، وتكريماً لهما ، وقد أسلمتا بعد ما نزل بأهلهما من الشدة .

وكنَّ قد أصبحن « أمهات المؤمنين » ونلن شرف القرب من رسول اللّه ﷺ ، واخترن اللّه ورسوله والدار الآخرة بعد نزول آيتى التخيير . فكان صعباً على نفوسهن أن يفارقهن رسول اللّه بعد تحديد عدد النساء . وقد نظر اللّه إليهن ، فاستثنى رسول اللّه ﷺ من ذلك القيد ، وأحلَّ له استبقاء نسائه جميعاً فى عصمته ، وجعلهن كلهن حِلاً له ، ثم نزل القرآن بعد ذلك بألا يزيد عليهن أحداً ،

---

(١) الأحزاب : ٥٠ - ٥٢ (٢) النساء : ٣

ولا يستبدل بواحدة منهن أخرى . فإنما هذه الميزة لهؤلاء اللواتى ارتبطن به وحدهن ، كى لا يُحرمن شرف النسبة إليه ، بعد ما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة . وحول هذه المبادئ تدور هذه الآيات . ففيها يحل الله للنبى ﷺ أنواع النساء المذكورات فيها - ولو كنّ فوق الأربع - مما هو محرَّم على غيره ، وهذه الأنواع هى : الأزواج اللواتى أمهرهن ، وما ملكت يمينه إطلاقاً من الفئ ، وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته ممن هاجرن معه دون غيرهن ممن لم يهاجرن - إكراماً للمهاجرات - وأيما امرأة وهبت نفسها للنبى بلا مهر ولا ولى . إن أراد النبى نكاحها (وقد تضاربت الروايات حول ما إذا كان النبى ﷺ قد تزوج واحدة من هذا الصنف من النساء أم لم يتزوج ، والأرجح أنه زوَّج اللواتى عرضن أنفسهن عليه من رجال آخرين) ، وقد جعل الله هذه الخصوصية للنبى ﷺ بما أنه ولى المؤمنين والمؤمنات جميعاً . فأما الآخرون فهم خاضعون لما بيَّنه الله وفرضه عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم . ذلك كى لا يكون على النبى حَرَج فى استبقاء أزواجه وفى الاستجابة للظروف الخاصة المحيطة بشخصه .

ثم ترك الخيار له - صلى الله عليه وسلم - فى أن يضم إلى عصمته مَن شاء ممن يعرضن أنفسهن عليه ، أو يؤجل ذلك . ومَن أرجأهن فله أن يعود إليهن حين يشاء.. وله أن يباشر من نسائه مَن يريد ويرجئ مَن يريد ثم يعود .. ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ .. فهى مراعاة الظروف الخاصة المحيطة بشخص الرسولَ ﷺ والرغبات الموجهة إليه ، والحرص على شرف الاتصال به ، مما يعلمه الله ويدبره بعلمه وحلمه .

ثم أنزل الله تحريم مَن عدا نسائه اللواتى فى عصمته فعلاً ، لا من ناحية العدد ، ولكن هن بذواتهن لا يستبدل بهن غيرهن ، ولم يُعرف أن رسول الله ﷺ قد زاد عليهن قبل التحريم .

وقد روت عائشة رضى الله عنها أن هذا التحريم قد ألغى قبل وفاة النبى ﷺ وتركت له حرية الزواج ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج كذلك غيرهن بعد هذه الإباحة ، فكن هنّ أمهات المؤمنين ..

بعد ذلك ينظم القرآن علاقة المسلمين ببيوت النبى ﷺ وبنسائه - أمهات المؤمنين - فى حياته وبعد وفاته كذلك . ويواجه حالة كانت واقعة ، إذ كان بعض المنافقين والذين فى قلوبهم مرض يؤذون النبى ﷺ فى بيوته وفى نسائه . فيحذرهم تحذيراً شديداً ، ويريهم شناعة جرمهم عند الله وبشاعته ، ويهددهم بعلم الله لما يخفون فى صدورهم من كيد وشر »[1] .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ، وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً * إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ، وَاتَّقِينَ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً * إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً * إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ

(١) انظر : فى ظلال القرآن - للشهيد سيد قطب - : ٥/ ٢٨٧٥ (بتصرف) .

الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ، وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (١) .

الآية الأولى من هذه الآيات هى آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، فقد حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل الرسول ﷺ بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون . إلا أن يؤذن لهم إلى طعام غير متحينين نضجه واستواءه ، ولكن إذا دعوا فليدخلوا ، فإذا طعموا فلينتشروا . روى مسلم فى صحيحه : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره » .

ونهاهم تعالى أن يستأنسوا للحديث كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِ مِنكُمْ ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْىِ مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

وكما نهاهم الله عن الدخول عليهن ، كذلك أمرهم ألا ينظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدهم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب ، فهذا الذى أمرهم به وشرعه لهم من الحجاب أطهر وأطيب .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً ﴾ نزلت فى رجل أعلن عن رغبته فى الزواج من بعض نساء النبى ﷺ بعد موته ، قال رجل لسفيان : أهى عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها فى حياته ، هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين .

ثم يخبرهم - تعالى - بأنه مهما تكنه ضمائرهم وما تنطوى عليه سرائرهم فإن الله يعلمه ، فإنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ﴾ (٢) .

---

(١) الأحزاب : ٥٣ - ٥٩ (٢) غافر : ١٩

ولما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم فى سورة النور : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ .... ﴾ (١) . وقد سأل بعض السَلَف : لِمَ لَمْ يذكر العم والخال فى هاتين الآيتين ؟ فأجاب عِكرمة والشعبى : بأنهما لم يُذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما . ولكن كرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها .

وقوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعنى بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعنى به أرقاءهن من الذكور والإناث . ثم يحثهن على خشية اللّه فى الخلوة والعلانية ، فإنه تعالى شهيد على كل شئ ، لا تخفى عليه خافية ، فليراقبن الرقيب .

ثم يحث المسلمين على الصلاة على رسوله ، فإنه تعالى وملائكته يصلون عليه .. وصلاة اللّه ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، أو : صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار .

ثم يهدد اللّه تعالى ويتوعد مَن آذى رسول اللّه ﷺ بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإصراره على ذلك ، وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص - عياذاً باللّه من ذلك - وقد نزلت هذه الآية فى الذين طعنوا على النبى ﷺ فى تزوجه صفية بنت حيى ، والظاهر أن الآية عامة فى كل مَن آذاه بشئ ، ومَن آذاه فقد آذى اللّه ، كما أن مَن أطاعه فقد أطاع اللّه .

ويتوعد اللّه الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات وينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ، والبهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم ، ومن أكثر مَن يدخل فى هذا الوعيد الكفرة باللّه ورسوله ، ثم الذين يعيبون الصحابة بما قد برأهم اللّه منه وينتقصوهم بما قد برأهم اللّه منه ، فإن اللّه تعالى قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين والأنصار ومدحهم .

---

(١) النور : ٣١

ثم يقول الله تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات - وخاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية ، وسمات الإماء ، والجلباب هو الرداء فوق الخمار .. عن ابن عباس رضى الله عنهما : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة . فإذا فعلن ذلك عُرِفن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر ، فلا يتعرضن للإيذاء .

* *

أما الصورة الخامسة والأخيرة - التى نعرضها هنا - فقد جاءت فى سورة التحريم ، وتعرض صفحة من الحياة البيتية للنبى ﷺ ، وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض ، وبينهن وبينه ، وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات فى حياته صلى الله عليه وسلم وفى حياة الجماعة المسلمة كذلك ، ثم فى التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع فى بيوت رسول الله ﷺ وبين أزاوجه حين أفشت إحداهن سراً له إلى صاحبة لها من أزواجه فتآمرتا عليه مما أدى إلى غضبه صلى الله عليه وسلم وإيلائه من نسائه أن لا يقربهن شهراً .. بل وهمُّ صلى الله عليه وسلم بتطليقهن .

كما تعرض هذه الصورة لما ورد فى هذا الحادث من توجيهات ربانية ، وبخاصة دعوة الزوجتين اللتين تظاهرتا عليه إلى التوبة إلى الله تعالى من هذا الذنب العظيم .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ، تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ، قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِن تَظَاهَرَا

عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ (١) .

هذا مثل آخر من تلك الأمثلة التى كانت تقع فى حياة الرسول ﷺ وفى حياة أزواجه ، والوقت الذى وقعت فيه الأحداث التى تشير إليها هذه الآيات ليس محدداً ، ولكن بالرجوع إلى الروايات التى جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش قطعاً .

وبمناسبة هذا الحادث وما ورد فيه من توجيهات ، وبخاصة دعوة الزوجتين المتآمرتين فيه إلى التوبة ، نجد الله تعالى يعقبه فى السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية ووقاية أنفسهم وأهليهم من النار . كما ورد مشهد الكافرين فى هذه النار ، ويختتم السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر فى بيت مؤمن ، وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان فى بيت كافر ، وكذلك عن مريم ابنة عمران التى تطهرت فتلقت النفخة من روح الله وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .

وهى صورة وإن كانت تعرض صفحة من الحياة البيتية لرسول الله ﷺ ، وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض ، وبينهن وبينه ، فهى تعرض كذلك صورة لانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات فى حياته صلى الله عليه وسلم وفى حياة الجماعة المسلمة كذلك ، ثم فى التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع فى بيوت رسول الله ﷺ وبين أزواجه كما قدمنا .

وقد قيل : إن هذه الآيات نزلت فى شأن مارية القبطية - سرية رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان الرسول قد حرّمها . روى النسائى أن رسول الله

---

(١) التحريم : ١ - ٥

صلى اللّه عليه وسلم كانت له أَمَة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرَّمها ، فأنزل اللّه عَزَّ وجَلَّ هذه الآيات .

وروى ابن جرير أن رسول اللّه ﷺ أصاب أم إبراهيم فى بيت بعض نسائه ، فقال : أى رسول اللّه ، فى بيتى وعلى فراشى ، فجعلها عليه حراماً ، فقالت : أى رسول اللّه ، كيف يُحرِّم عليك الحلال ؟ فحلف لها باللّه لا يصيبها ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآيات .

والصحيح : أن ذلك كان فى تحريمه العسل .

روى البخارى عن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت : « كان النبى ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأتُ أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير [1] ، إنى أجد منك ريح المغافير . قال : « لا ، ولكنى كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له ، وقد حلفتُ ، لا تخبرى بذلك أحداً » .. فهذا هو الذى حرَّمه على نفسه وهو حلال له .

ويقول الشهيد « سيد قطب » : « ... يبدو أن التى حدثتها رسول اللّه ﷺ هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتآمرة معها ، فأطلع اللّه رسوله ﷺ على الأمر . فعاد إليها فى هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه ، تمشياً مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمساً مختصراً لتعرف أنه يعرف وكفى ، فدهشت هى وسألته : « مَن أنبأك هذا » ؟ .. ولعله دار فى خلدها أن الأخرى هى التى نبأته ! ولكنه أجابها : « نبأنى العليم الخبير » .. فالخبير هو المصدر الذى يعلمه كله ، ومضمون هذا أن الرسول ﷺ يعلم كل ما دار ، لا الطرف الذى حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث ، وما كشف عنه من تآمر ومكايدات فى بيت

---

(١) المغافير : صمغ حلو الطعم كريه الرائحة .

الرسول ﷺ أن غضب ، فآلى من نسائه لا يقربهن شهراً ، وهَمَّ بتطليقهن - على ما تسامع المسلمون - ثم نزلت هذه الآيات وقد هدأ غضبه صلى الله عليه وسلم فعاد إلى نسائه » [1] .

وبعد أن يعرض الرواية الأخرى للحادث التى أخرجها النسائى من حديث أنس ، وكما رواها ابن جرير وابن إسحاق من أن هذه الآيات إنما نزلت فى شأن مارية القبطية ، يقول : « وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذى وقع ، وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدى إلى طلاق زوجات الرسول ﷺ نظراً لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسناداً ، وهى فى الوقت ذاته ممكنة الوقوع ، ويمكن أن تحدث الآثار التى ترتبت عليها ، إذا نظرنا إلى المستوى الذى يسود بيوت النبى ، مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئاً كبيراً ، والله أعلم أى ذلك كان » [2] .

أما وقع هذا الحادث - حادث إيلاء النبى ﷺ من أزواجه - فيصوره الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس قال : « لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله ﷺ اللتين قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حتى حج عمر وحججتُ معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلتُ معه بالإداوة ، فتبرز ، ثم أتانى فسكبتُ على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، مَن المرأتان من أزواج النبى ﷺ اللتان قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؟ فقال عمر : واعجباً لك يابن عباس ! (قال الزهرى : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه) قال : هى عائشة وحفصة . قال : ثم أخذ يسوق الحديث :

« قال : كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم .

---

(١) فى ظلال القرآن - للشهيد « سيد قطب » : ٣٦١٣/٦ (بتصرف) .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

« قال : وكان منزلى فى دار أمية بن زيد بالعوالى . قال : ففضبت يوماً على امرأتى ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرتُ أن تراجعنى . فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فواللّه إن أزواج رسول اللّه ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل !

« قال : فانطلقتُ فدخلتُ على حفصة فقلت : أتراجعين رسول اللّه ﷺ ؟ قالت : نعم ! قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم ! قلت : قد خاب مَن فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب اللّه عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت ؟ لا تراجعى رسول اللّه ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسلينى من مالى ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك هى أوسم - أى أجمل - وأحب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم منك - يريد عائشة .

« قال : وكان لى جار من الأنصار ، وكنا نتناوب النزول إلى رسول اللّه ﷺ ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فيأتينى بخبر الوحى وغيره وآتيه بمثل ذلك . قال : وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبى يوماً ثم أتى عشاءً فضرب بابى ثم نادى ، فخرجتُ إليه ، فقال : حدث أمر عظيم . فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ! طلّق رسول اللّه ﷺ نساءه ! فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ! قد كنت أظن هذا كائناً .

« حتى إذا صليتُ الصبح شددت علىّ ثيابى ثم نزلتُ فدخلت على حفصة وهى تبكى . فقلت : أطلّقكن رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم ؟ فقالت : لا أدرى ، هو هذا معتزل فى هذه المشربة .

« فأتيتُ غلاماً أسود فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلىّ فقال : ذكرتك له فصمت ! فانطلقتُ حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكى بعضهم ، فجلستُ عنده قليلاً ، ثم غلبنى ما أجد فأتيتُ الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلىّ فقال : ذكرتك له فصمت ! فخرجتُ فجلستُ إلى المنبر ، ثم غلبنى ما أجد ، فأتيتُ الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلىّ فقال : ذكرتك له فصمت !

« فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعونى فقال : ادخل ، قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول اللّه ﷺ ، فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثّر فى جنبه . فقلت : أطلّقت يا رسول اللّه نساءك ؟ فرفع رأسه إلىّ وقال : « لا » . فقلت : اللّه أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول اللّه وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبتُ على امرأتى يوماً ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرتُ أن تراجعنى ، فقالت: ما تنكر أن أراجعك ؟ فواللّه إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب مَن فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب اللّه عليها لغضب رسوله ، فإذا هى قد هلكت ؟ .. فتبسم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

« قال : فقلت : يا رسول اللّه ، قد دخلتُ على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هى أوسم وأحب إلى رسول اللّه ﷺ منك ! .. فتبسم أخرى .

« قال : فقلت : أستأنس يا رسول اللّه ! قال : « نعم » . فجلستُ فرفعتُ رأسى فى البيت ، فواللّه ما رأيت فى البيت شيئاً يرد البصر إلا هيبة مقامه ، فقلت : ادع اللّه يا رسول اللّه أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون اللّه . فاستوى جالساً وقال : « أفى شكٍ أنت يابن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لى يا رسول اللّه .. وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه اللّه عَزَّ وجَلَّ » (١) .

وروى ابن أبى حاتم عن أنس قال : قال عمر رضى اللّه عنه : بلغنى شئ كان بين أمهات المؤمنين وبين النبى ﷺ فاستقريتهن أقول : لتكفنّ عن رسول اللّه ﷺ أو ليبدلنه اللّه أزواجاً خيراً منكن ، حتى أتيتُ آخر أمهات المؤمنين فقالت : يا عمر ، أما فى رسول اللّه ما يعظ نساءه حتى تعظهن ، فأنزل اللّه تعالى :

---

(١) وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عن الزهرى بهذا النص .

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ .. ﴾ ، وهذه المرأة التى ردته هى أم سلمة رضى الله عنها كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى .

وفى رواية أن عمر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلّما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوتُ أن يكون الله يصدِّق قولى ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ .

أرأيتَ كيف كان عمق هذا الحادث وأثره فى قلب الرسول ﷺ حتى آلى من نساءه أنه يهجرهن شهراً ، وحتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير ! ليطيب خاطر الرسول ﷺ ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير ؟!

أرأيتَ كيف أثّر هذا الحادث على نفوس المسلمين حتى عدُوه أعظم وأخطر من غزو غسان لبلادهم ، وكيف كانوا يرون أن استقرار قلب رسولهم الكبير ، وسلام بيته الكريم أكبر من كل شأن ، وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم ؟!

أما اليمين - التى يوحى النص بأن الرسول ﷺ قد حلفها - بتحريم العسل على نفسه - فقد فرض الله تحلتها ، أى كفّارتها التى يحل منها ، ما دامت فى غير معروف والعدول عنها أولى بقوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .. الله مولانا .. فهو يعيننا على ضعفنا وعلى ما يشق علينا ، ومن ثَمَّ فرض تحلة الأيمان للخروج من العنت والمشقة ، وهو العليم الحكيم .. يُشرِّع لنا عن علم وعن حكمة ، ويأمرنا بما يناسب طاقتنا وما يصلح لنا ، فلا نحرِّم إلا ما حرَّم ، ولا نحل غير ما أحلَّ .

* * *